
قصص للناشئة
تاراس بولبا
بطل القوزاق
مكتبة المعارف
بيروت
تاراس بولبا
بطل القوزاق
قصص للناشئة

مكتبة المعارف

ص.ب ١٧٦١

بيروت

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧

بيروت

قصص للناشئة

تاراس بولبا

بطل القوزاق

نيقولا غوغول

ترجمة واعداد لجنة من المتخصصين

بإشراف الناشر

مكتبة المعارف

بيروت

قصص للناشئة

هذه المجموعة هي من القصص العالمية المختارة تقوم بإعدادها وترجمتها واقتباسها لجنة من الجامعيين المتخصصين في هذا المجال بإشراف الناشر

— أليس في بلاد العجائب   لويس كارول
— جزيرة الكنز   ر . ل . ستيفنسون
— تاجر البندقية   شارل شكسبير
— جلفر   جوناثان سويفت
— روبنسون كروزو   ر ل. ستيفنسون
— قصة مدينتين   تشارلز ديكنز
— تراس بولبا بطل القوزاق   نيقولا غوغول
— مرتفعات وذرينغ ـ الحزن العميق   شارلوت برونتي
— ذهب مع الريح   مرغريت مينشل
— الأرض الطيبة   بيرل باك
— جين إير   شارلوت برونتي
— دايفيد كوبرفيليد   شارلز ديكنز
— روبن هود   عن ولت ديزني- ميشال وست

١

رحَّبَ الكَهلُ تاراس بولبا بولَدَيه اللَّذَين عادا إلى البيتِ بعد أن أنهيا دِراستَهما في جامعةِ «كييف» لكنَّه قال :

ـ يا للعجب ! مـا أشبَهكُما بالأشباحِ التي يَنْصُبُها الفلاّحون! ما هذا اللِباسُ الطويلُ العريض الَّذي تَرْتَديانه ، وكأنكما قد دَخَلْتُما سِلْكَ الرهْبَنة !!

خيَّبتْ تحيةُ الوالدِ الساخرةَ أملَ الشابَّين . لقد كانا يَنْتَظِران استِقبالاً يختلِف عن ذلك ، استقبالاً

أشدَّ حرارةً بعدَ غَيْبَتِهِما الطَّويلَة ، لكنَّهما لم يُعرِبا عن عَدَمِ رِضاهما بهذا اللِّقاءِ ، ولم يَقُولا شيئاً .

هَبَطَ الشابَّانِ عن جوادَيْهِما ، وكانا شابَّين قويَّين ، يبدو عَلَيْهِما الخَجَل . كيفَ لا ، وقد قَضَيا مدةً طويلةً في الجامعة ! كان وجهاهُما يَفيضان حَزْماً وعافية . فوقفا صامتَيْن وأعينهما موجَّهةٌ إلى الأرض .

أما تاراس بولبا ، فقد واصلَ حديثَه وهو ينظُر إليهما نَظَراتِ السُّخْرِية :

ـ ماذا دهاكما ؟ ولماذا تَقِفانِ هكذا صامتَين كالبُوم ؟ دعاني أراكُما جيداً ... يا لَغرابة هذه المَلابس! العالمُ كلُّه لم يرَ لها مَثيلاً . ليركضْ واحدٌ منكما أمامي قليلاً، لِأرى إذا كان لا يتعثَّر بأطرافِ ثيابِه .

ولم يحتملِ الابنُ الأكبرُ كلامَ أبيهِ الساخرَ هذا ، فردَّ عليهِ قائلاً :

ـ لا يحقُّ لك يا أبتِ أن تسخرَ مِنّا على هذا

الشَّكل ، فنحن لم نَعُدْ أطفالاً .

فقاطَعه تاراس بُولبا قائلاً :

ـ يا لَلْعَجَب ... من يَمْنَعُني عن قولِ ما أُريد ؟ ولماذا لا أَسْخَرُ مِنكُما ؟

ـ لأنِّي لن أحتَمِلَ سُخْرِيَتَك ، وسأجدُ نفسي مُجْبَراً على معاقَبَتِك، بالرَّغمِ من كَونِك أبي .

ـ وكيفَ بوُسْعِك أنْ تَمْنَعَني عن ذلك أيها البطلُ المَغْرُور ؟

ـ واللهِ لن أتورَّعَ عن ضَرْبِك ، حتى لو كُنتَ أبي .

صَرخ تاراس بولبا وهو يَتراجَعُ بِضْعَ خَطَواتٍ بذُهول :

ـ ماذا ! أنتَ تُريدُ أن تَضْرِبَ والِدَك ؟

ـ نعم ، سأفعلُ ذلك . ليس مِن حقِّ أحدٍ ، حتى أنتَ ، أن يُوجِّهَ إليَّ أيَّةَ إهانةٍ .. لي أو لِشقيقي .

ـ ولكن، كيفَ تَوَدُّ أن تَتَشاجَرَ معي، مُلاكَمةً أم مُصارعةً ، أم كيف ؟ هيَّا إذن ، دعْني أرى قوَّتَك .

ـ أنا على استعداد لمقاتلتك كيفما أردت .

ـ حسناً ، ليكن ذلك باللكمات إذن . سأرى أي نوع من الرجال أنت .

وهكذا تحول لقاء الأب لولديه العائدين من التحيات والقبل إلى لكمات أخذ الأب وابنه يتبادلانها . فكان الواحد منهما يهاجم الآخر ، ويوجه له اللكمات بكل عنف: على الصدر، على الأضلاع ، على البطن ، تارة يتراجعان ويرمق الواحد منهما الآخر ، وطوراً يعودان إلى مهاجمة بعضهما من جديد .

أما زوجة تاراس بولبا ، ووالدة الشابين ، الهزيلة ذات الوجه الشاحب ، فقد وقفت عند مدخل البيت تنظر بدهشة كبيرة إلى ما كان يحدث أمامها ، غير مصدقة عينيها !! ولقد عجبت لتصرف زوجها الغريب تجاه ولديها المحبوبين . ولم تتمالك نفسها ، فأطلقت صيحة فزع ، وقالت :

ـ يا ألله، لا بد وأن الرجل قد جن حتى يستقبل

ولديه على هذا الشكل ! أنظروا أيها الناس الطيبون، انظروا ! لقد جن الرجل ! عاد الولدان للتو إلى البيت ، ومنذ أكثر من عام لم نرهما ، وها هو ، بدلاً عن إحاطتهما بالحب والرعاية ، يقابلهما بالعراك والقتال !

كانت المسكينة تعرف شراسة زوجها وغرابة أطواره .. لم تجرؤ على التدخل بينهما وإيقاف القتال. وهكذا بقيت، الأم الطيبة ساكنة تنتظر نهاية المعركة . وبعد مضي بعض الوقت ، توقف الأب عن القتال ، وقال وهو يلهث من التعب :

ـ إنه يجيد القتال . والله إنه جرو مقاتل .

وتابع فيما هو ينظف ثيابه من الغبار الذي كان قد علق به ، وقال :

ـ كان من الأفضل لي لو لم أستفزه أبداً . سوف يصبح من خيرة رجال القوزاق .

ثم نظر إلى ولده نظرة الإعجاب وقال :

ـ المعذرة يا ولدي ، ما كان لي أن أسخر منك ،

لقد أخطأتُ بِعَمَلِي هذا ... تقدَّمِ الآنَ لكيْ أَضُمَّكَ إلى صَدْري وأُقبِّلَك ...

وشرعَ الأبُ والابنُ يَتعانقان ، ثمّ قال تاراس بولبا لِابنِه :

ـ كنْ هكذا دائماً يا وَلَدي ؛ لا تَضْعُفْ أمامَ أحد ، بل رُدَّ الضَّربةَ بِمِثْلِها لكلٍّ من يُحاول الاعتِداءَ عليك . إنَّ الضعيفَ لا مكانَ له في هذا العالَمِ الشِّرير . ولكنَّ حالتَكَ مُضحِكة . ما هذا الحَبلُ الَّذي يتَدَلَّى هنا ؟

ثم التفتَ إلى الإبنِ الأصغرِ ، الَّذي كانَ لا يزالُ يَقِفُ مُسمَّراً في مكانه ، وصاح به :

ـ وأنتَ أيُّها البَليد ! لماذا تقفُ جامداً كالصَّنَم ؟ يداكَ تَتدلَّيان إلى جانبيكَ وكأنَّهما مَشْلُولتان ! تقدَّمْ إلى هنا ، واضربْني بِعَصاكَ لأرى قوَّتَكَ أنتَ الآخر ، وهل هي بِمُستوى قوَّةِ أخيك .

فصرخَتِ الأمُّ ، وأسرعتْ إلى ولدِها وضَمَّتْه إلى صَدْرِها . وقالت :

ـ ماذا دهاكَ يا رَجُل ؟ لقد أصبحتَ في سِنِّ الشَّيخُوخة . لم أرَ حتى الآنَ والِداً مِثْلَكَ يحاوِلُ فَرْضَ العِراكِ على أبنائه، وكأنْ لا شيءَ لديهِ أفضلَ من ذلِكَ لِيفعَلَه . إنه مُجرَّدُ طِفل . لقد وصَلَ من مكانٍ بعيد ، وهو مُتْعَب ... دعْهُ يتناوَلْ شيئاً من الطَّعام ثم يَستريح .

لكنّ تاراس بولبا لم يُعِرْ كلامَ زوجتِه أيَّ اهتمام، بل عاد يُوجِّهُ حديثَه إلى ابنِهِ الأصغرِ قائلاً :

ـ لا تُصغِ إلى كلامِ والدتِك ، فإنّها امرأةٌ لا تعرِفُ شيئاً . إعلَمْ ، أن مَجالَكَ في الحياةِ مُنذُ الآنَ ينحصِرُ في الحربِ والقِتال ، في المَيْدانِ الرَّحْبِ والجَوادِ الطيِّب . ذلكَ هو نَمَطُ حياتِك يا بُنيّ ، لا أنْ تظَلَّ ضعيفاً مدلَّلاً . أنظرْ إلى هذا السيفِ المنحني ، هو أمُّكَ وأبوك ! وكل ما تعلَّمتَه في الجامعة لا قِيمةَ له عِندي . سأبعثُ بِكُما في الأسبوعِ المُقبلِ إلى «زابورجي» حيثُ تحصُلانِ على كلِّ ما تحتاجانه من تعليم . تلكَ هي مدرستُكما ،

وهناكَ تنالانِ ما أنتُما في حاجةٍ إليه من الإدراكِ والرُّجولة.

فقاطعتْه زوجتُه العَجوزُ بِصَوتٍ حَزينٍ وقد تَرَقرَقَتِ الدموعُ في عَيْنَيها قائلة:

ـ ولماذا تريدهما أن يَذْهَبا بهذِهِ السُّرْعَة؟ ألَنْ يَبْقَيا في البيتِ غيرَ أسبوعٍ واحد؟ لماذا لا تَدَعُهما ينالانِ قِسطاً من الراحة، ويكونُ لَدَيْهما متّسعٌ من الوقتِ للاحتِفالِ بعَوْدَتِهما إلى البيتِ بَعْدَ غِيابِهما الطَّويل؟

فقال تاراس بولبا:

لم يُخلَق القوزاقيُّ إلاّ من أجْلِ الحَرْبِ والقِتال، لا لِلعَيْشِ طوالَ عُمرهِ مع النِّساء. هيّا، دَعي هذهِ الثرثرةَ الآن، واذهبي وضَعي كلَّ شيءٍ لَديكِ على المائدة. لا نريدُ شيئاً من الكَعكِ أو الفطائر، بل خَروفاً بكامِله، وكثيراً من الفُودكا الصّافية.

خاصرَ بولبا ولدَيْه وقادَهما إلى أفضلِ غرفةٍ في المنزل، حيثُ كانت هناك خادِمتان جميلتان، تقومان على ترتيبِ المنزل، قبلَ أن تنصرفا إلى الخارجِ بسرعة،

حَسْبَما تقضي التقاليدُ الّتي كانت سارِيةً بين القوزاقِ في ذلك العصر، والتي تحظُرُ على المرأةِ الكشفَ عن وجهِها أمام الغُرَباء.

كانت الغُرفةُ مفروشةً حسبَ طابعِ ذلك العَصر. كانت الجدرانُ، والأرض، والسقف، مَطْلِيّةً بطبَقةٍ من الدّهان الملوَّنِ بإتقان. وقد عُلِّقَت على الجدرانِ سيوف، أسواطُ الرّكوب، بنادِق، قُرونُ البارود المزخْرَفَة، وأعنّةُ الجيادِ ذاتِ المقابضِ الفضّيّة. وكانت مربوطةً بأشرطةٍ ملوَّنةٍ تتدلّى منها. كما كان هناك صفوفٌ من الأباريقِ والكؤوس، والأقداح المطعَّمة بالذّهب مصفوفةً فوق رفوفٍ أُعدَّت لهذه الغاية. وكانت النوافذُ في الحجرةِ صَغيرة، وذاتُ ألواحٍ زجاجيّةٍ مُستديرة الشكل، كالّتي توجد في الكنائس القديمة.

أما المقاعد فقد كانت مصنوعةً من خشبِ السِّنديان وموزَّعةً في أنحاءِ الغرفة. وكذلك المائدةُ الضّخمة القائمة في الرُّكنِ الأماميِّ تحت الإيقونات، قريباً من الموقِدِ العريض.

إلى هذا المكانِ دعا تاراس بولبا رهطاً من الفرسان والضباطِ الذين صدف وجودهم في البلدة، لحضورِ الحفلةِ التي كان سيقيمها على شرفِ ولديه العائدين. وعندما حضر صديقه القديم طوفكاش مع اثنين من زملائه، قدم تاراس إليهم ولديه وقال:

— أنظروا أيها الرفاق إلى هذين الشابين! سارسلهما إلى المعسكر في زابورجي عما قريب. فليس هناك مدرسة أفضل من ميدان «زابورجيان ستش». فهناك يتعلم الشباب البطولة الحقة.

هنأ الضيوف بولبا كما هنأوا الشابين، وقالوا إن ما يفعله هو عين الصواب.

وما إن حضر جميع المدعوين، حتى بادر تاراس إلى إجلاسهم، كل واحدٍ حيث يجب أن يجلس، إلى المائدةِ العامرةِ بأشهى أنواع الطعام والشراب. ثم تناول تاراس كأس الشراب بيدهِ، وقال:

— حسناً، أيها الإخوة الضباط، دعونا نشرب شيئاً من الفودكا، هذا نخب صحتكما يا ولديّ:

نخبك يا أوستاب، وأنت يا أندريا. ليهبكما الله التوفيق ويكلل جهادكما بالنصر على الأعداءِ إن هم بادروا إلى شن الحرب على بلدنا الحبيب. إرفعا كؤوسكم أيها الأصدقاء وتذوقوا هذه الفودكا الجديدة..

وتابع تاراس قائلاً:

— أخبرني يا أوستاب، وأنت يا أندريا، هل كان عميدكم في الجامعة يسمح لكما باحتساء الخمر، أم كان يعاقبكما بالجلد إن فعلتما ذلك؟

فأجاب أوستاب ببرود:

— ما لنا والعودة إلى الماضي، ما حدث قد انتهى، ولا فائدة ترجى من مثل هذا الحديث الآن.

وقال أندريا:

— دع أياً كان يحاول لمسي الآن. وسأريه أي نوعٍ من الرجال هم أبناء القوزاق.

فصرخ تاراس، وقد سره ما سمع من ولديه، وقال:

— أحسنت يا ولدي.. هذا ما كنت أرجوه.

وما دامَ الأمرُ كذلك ، فإني واللهِ ذاهبٌ مَعَكُما ..
ولِمَ أبقى هنا .. أأبقى لأغدُوَ مزارعاً في الحقل ، أو
أرعى شؤونَ البيت ، وأرعى الغنم ؟ كلاّ ، أنا قوزاقيٌّ ،
وهذا العملُ ليس من اختِصاصي ، إنّ هـذا العملَ
مخصَّصٌ للنِّسْوَةِ لا للرِجال، أما مِهنتي فهي الحربُ
والقتال . سأذهبُ معكُما إلى زابورجي ، ولن يَثْنِيني
شيءٌ عن ذلك .

دبَّ الحماسُ في تاراس بولبا ، فانتصبَ واقفاً
وضَربَ الأرضَ بقدمِه ، وقال :

ـ لماذا نتأخَّرُ هنا ؟ فليسَ هذا البيتُ هو المكانَ
المناسِبَ لانتظارِ العدوّ ، سنذهبُ غداً ..

وفي ذِروةِ حماسَتِه أخذَ يقذِفُ بالصُحونِ
والأطباقِ وكلِّ ما وصلتْ إليه يَدُه ، إلى الأرض ،
حيث أخذتْ قِطعُها تتَناثرُ في جميع أرجاءِ المكان .
أما زوجتُه المسكينةُ التي كانت تعرِفُ الكثيرَ عن
فَوْراتِه هذه ، فقد ظلّتْ جالسةً في مكانها ترقُبُه
بحزْنٍ وأسى . ولم تجرُؤْ على أن تقول شيئاً .

لم تَعُدْ الزوجةُ تستطيعُ إيقافَ دُموعِها التي
بدأتْ تتساقطُ من عَيْنَيها وهي تنظر إلى ولدَيها
الحبيبَين اللّذين ستَفتَقِدُهما مرّةً أخرى ، ولم يكنْ
قد مضى على عَوْدتهما إليها غيرُ يومٍ واحدٍ . وبدا يأسُها
الصامتُ في ارتعاشِ عينيها وفي شَفتَيها اللّتين أخذَتا
بالارتجافِ بشكلٍ عنيف .

كان تاراس بولبا من تلك الشخصيّاتِ التي ظهرتْ
في القرنِ الخامسِ عشرَ في ركنٍ مضطربٍ من
أوروبا، حينما كانَ الجزءُ الجنُوبيُّ من روسيا يتعرَّضُ
للسَّلْبِ والدمار على أيدي الغُزاة المغول ، مما جعلَ
الناسَ هناك يعيشُون في خوفٍ دائمٍ وَسْطَ أعداء
أشدّاء . وما لبثوا أن أخذوا يُحاربونهم بكلِّ شجاعة
وجُرأة، ونسُوا أنَّ هناكَ شيئاً اسمُه الخوف . وهكذا
تحوّلَ أبناءُ القوزاق إلى محاربين أشدّاءَ يُقاتِلون العدوَّ
في أيِّ مكان ، وأصبَحوا قوماً أحراراً ، يُدافِعون
عن أرضِهِم وبلَدِهم دفاعَ الأبطال ، ويُضحُّون بكلِّ
قَطرةٍ من دِمائِهم من أجلِ ذلك . وكان لكفاحِهِم هذا

الفضلُ في إنقاذِ أوروبا من التتار وهجماتهم الوحشيّة التي كانت تهدّدُ بالسّيطرةِ عليها.

ولقد شعر ملوكُ بولونيا في ذلكَ الزمنِ بالخطر الّذي كان القوزاق يتهدّدونهم به. وحسبوا حساباً لمزايا حبّهم للحرب. فمنحوا زعماءهم حقّ تشكيلِ الفِرَقِ العسكريّة لتكونَ جاهزةً للقتال، كما منحوهم حقّ اختيارِ قوّادِهم من بينِ القوزاق أنفسِهم. ولم يكن جيشُ القوزاق جيشاً نظامياً بالمعنى المفهوم، ولكنْ في حالِ نشوبِ حربٍ، كان كلُّ رجلٍ يظهرُ على متنِ جوادِه، مسلّحاً تسليحاً كاملاً، ومستعدّاً للخدمة لِقاءَ أجرٍ ينالُه من الملِك. وخلالَ أسبوعين كانوا يجنّدون جيشاً لا مثيلَ له. فإذا ما انتهى القتالُ عادَ كلُّ محاربٍ إلى عملِه الأصليّ، ويغدو مرةً أخرى ذلك القوزاقيَّ الحرّ.

لم تكنْ هناك حرفةٌ لا يعرفها القوزاقي، مما أثارَ إعجابَ معاصريهم من الأجانب بكفاءاتهم العالية. وكان هناك بالإضافةِ إلى القوزاقِ المسجّلين كاحتياطيٍّ

للجيش، متطوعون من الفرسانِ الّذين كانت تتم دعوتُهم بواسطة المنادين. وكان هؤلاء يطوفون في المدنِ والأسواق داعينَهم إلى المشاركةِ في القتال والفوزِ بمجدِ القوزاق. فكانت هذه الدعوة بمثابةِ شرارةٍ تتساقطُ فوق عشبٍ جافّ. وسرعانَ ما يتركُ كلُّ واحدٍ منهم عملَه، ويمتطي جوادَه ويُسرع إلى تلبيةِ النّداء.

كان تاراس بولبا عنيداً، وكان واحداً من أولئكَ الضبّاطِ القدامى الّذين تأصّلت فيهم روحُ القتال، وكان معروفاً بخشونتِه واستقامةِ خُلقه.. فهو يحبُّ البساطةَ في الحياة ويختلفُ عن زملائه الّذين أغرتهم العاداتُ البولونية، وأحاطوا أنفسَهم بجميعِ أسبابِ الرفاهية. وكثيراً ما كان تاراس بولبا ينددُ بهم، وقد جعلَ من نفسِه مدافعاً شرعيّاً عن الديانة الأرثوذكسيّة.

وكان تاراس كثيراً ما يركبُ حصانَه ويطوفُ على جميعِ القرى لتفقّدِ أحوالِ الناسِ هناك، يعاونه

في ذلك عددٌ من أنصارِه ، فيفرِضُ العدالةَ بين الناس ويُجبرُ الجميعَ على احترامِ القوزاقي . وكان يعتبرُ إعلانَ الحربِ ضدّ أعداءِ القوزاق أمراً له ما يُبرِّرُه في أيةِ ظروف . وكلُّ ذلك من أجل مجد الملَّةِ الأرثوذكسيّة .

أرادَ بولبا أن يرسِلَ ولديه بنفسيهما في باديء الأمر . ولكنَّ مرآهما وجمالَ الرّجولةِ الكاملةِ فيهما ألهبَ روحَ الفروسيّة العسكريّةَ في نفسِه .. فصمَّمَ على مرافقتِهما في هذه الرِّحلة . وما إن توصّلَ إلى قرارِه هذا ، حتى تركَ مدعوّيه بعدَ أن انتهوا من تناولِ الطعام ، وانهمكَ في إعطاءِ الأوامر ، واختيارِ الجيادِ والسروج . ثم إنه ذهبَ ليختارَ الخدمَ الّذين سيصحبونهم في رحلتِهم . وحينما عادَ كان مرهقاً تماماً بعد ما بذلَه من الجهد ، فقال لولديه :

ـ هيّا يا أبنائي ، علينا أن نذهبَ إلى النومِ الآن ، لِنأخذَ قسطاً من الراحة قبل أن ننطلقَ في رحلتنا صباحَ الغد . وسوف ننامُ في الهواء الطّلق .

استلقى تاراس فوق بساطٍ ولفَّ نفسَه بسترةٍ

طويلةٍ من جلد الخروف ، وما لبثَ أن استغرقَ في النّوم ، وحذا الجميعُ حذوَه . أما الوالدةُ المسكينةُ فهي وحدَها الّتي لم تنَم فقد انحنَتْ فوق ولديها النائمين جنباً إلى جنب وهي تنتحِبُ بصمتٍ ، وتقول :

ـ ماذا سيغدو من أمركما ، يا ولديَّ الحبيبين ؟ وأيُّ مصيرٍ ينتظركما ؟

كانت هذه الأمُّ المسكينةُ بائسةً حقاً ، مثلُها مثلُ كلِّ امرأةٍ في تلك الأيّام القاسية . لم تعشْ إلا لفترةٍ قصيرة ، وهي تستمتعُ بحبِّ زوجها ورعايته ، ثم ما لبث أن نسيَها من أجل سيفِه ورفاقه وسُكره .. وأصبحتْ لا تراه إلا على فترات متباعِدة . وعندما كان يعود إلى البيتِ بعد غيابِه الطّويل ، لم تكن تُلاقي منه غيرَ الضّربِ والإهانة . كانت في الحقيقةِ غريبةً بين ذلك المجتمعِ من الفرسان ، الّذين عشقوا حياةَ زابورجي الطّليقةِ من كلِّ قيد .. وهكذا فإنها قد فقَدت نضارتَها سريعاً وهاجمتها الشّيخوخةُ قبلَ الأوان .

استيقظ تاراس مبكراً في صباحِ اليومِ التالي، وثبَ على قدمَيه، ولم يكنْ قد نسيَ شيئاً من الأوامر التي أصدرَها في اللَّيلةِ الماضية، وأسرعَ فأيقظَ ولديه، وهو يقول:

– لقد نمتُما ما يكفي، وقد حانَ وقتُ رحيلِنا. إذهبا وقدِّما الماءَ للخيل..

ثم نادى على زوجته، وأمرَها أن تجلِبَ لهم بعض الطَّعام، يتناولونه قبلَ رحيلهم.

أيقنتِ المرأةُ المِسكينةُ أن أملَها في بَقاءِ ولدَيها الحبيبَين لفترةٍ أطولَ قد تبخَّر، فراحت تُعِدُّ لهما الطَّعام، وقد تفجَّر قلبُها بالحُزْن. وانفجرت الدُّموعُ من عينَيها من جديد. أما زوجها فكان يُصدِرُ أوامرَه ذاتَ اليمينِ وذاتَ اليَسار.

بدَّلَ ولدا تاراس بولبا ملابسَهما، وارتدى كل منهما سُترةً قوزاقيةً، من النَّسيجِ الأحمر. ووَضعا على وَسطَيْهما حِزامين موشَّيَين وضعا فيهما مسدَّسين، والسيفَين اللذَين أخذ طَرفُهما يَحتكُّ بمهازيهما.

كذلك لَبِسَ كلٌّ منهما حذاءً أحمرَ اللَّون في طرَفه مهمازٌ من الفضَّة. فبدا وجهاهُما أكثرَ وسامةً وجمالاً. وبعد أن انتهى ثلاثَتُهم من التَّحضيرِ للرَّحلة، وقف تاراس بولبا وقال لزوجتِه:

– بارِكي ولديْك أيتها الأُم، وادعي الله لكي يجعلَهما يُقاتِلان بشجاعةٍ ويُدافعا عن شَرفِهما ووطنِهما ودينهما. فدعواتُ الأُم مقبولةٌ دائماً عند الله.

احتضنَتْهُما والدتُهما ثم تناولت إيقونتين صغيرَتين وعلَّقتْهما حولَ عنقيهما، وهي تَنْتَحِبُ قائلةً:

– ليحفظْكُما الله، ويسدِّدْ خُطاكما ... لا تنسيا والدَتَكُما، وابعثا إليَّ دائماً بأَنْبائكُما.

ولم تستطع أن تقولَ أكثر من ذلك. وهنا قال بولبا:

– هيَّا يا ولديَّ، فلنرحلْ بحراسةِ الله.

وثبَ تاراس فوق جوادِه فيما امتطى ولداه جوادَيهما

اللذين كانا يقفان مسرجين أمام الباب. وحينما شاهدتهما والدتهما يهمّان بالرحيل اندفعت نحو ابنها الأصغر وتمسّكت بالسرج، ولم تدعه يفلت من يديها، وكأنها استمدّت قوة غير عادية، حتى تقدّم قوزاقيّان وأبعداها بلطف.

ولكن ما كادا يجتازان البوابة، حتى عادت وأخذت تركض خلفهما، وأوقفت الجواد بقوة ولّدتها لها عاطفتها الجامحة، ثم طوّقت أحد ولديها بذراعيها. فعاد القوزاقيّان وأبعداها مرّة ثانية وأعاداها إلى البيت. أما ولداها فقد سارا مثقلين بالألم لمرأى والدتهما على مثل تلك الحالة المحزنة، مما جعل الدموع تطفر من عيونهما. ولكنهما حاولا حجبها عن والدهما خوفاً من تقريعه.

كان اليوم بارداً وكئيباً، ولم يكونا يريان شيئاً سوى الأرض ورؤوس الأشجار. وعندما نظرا إلى بيتهما بدا وكأنه قد غرق في الأرض واختفى عن العيان. وإذ ذاك لم يكن يرى غير السهب المترامي

الأطراف، الذي أعاد إلى أذهانهما أيام طفولتهما الباكرة، منذ أن درجا على حشائشه المبلّلة بالندى إلى الوقت الذي أصبحا به فتيين. وظهر السهل خلفهما من بعيد كجبل يخفي كل ما وراءه من البشر.

«وداعاً أيتها الطفولة، وداعاً لكل شيء، ولكل الناس».

٢

كان ولدا تاراس بولبا في الثانية عشرة عندما بعث بهما والدهما إلى جامعة كييف، وكان التقليد السائد في ذلك الوقت بين ذوي المكانة الرفيعة، أن يعلموا أبناءهم ويهيئوا لهم أسباب المعرفة، حتى لو نسي هؤلاء فيما بعد، كل شيء تعلموه. هكذا التحقا بالجامعة.

وكانا في بداية الأمر شرسي الطباع، تدل تصرفاتهم على الوحشية. ولكنهما ما لبثا أن أخذا يتطوران، وأصبحا يتقيدان بالنظام مثلهم مثل غيرهم من طلاب الجامعة وصارا أكثر وداً وألفة مع الآخرين من زملائهم.

وقد جعل الابن الأكبر، اوستاب، يفر من الجامعة في بادىء الأمر. ولكنه كان يعاد ثانية رغماً عنه، ويعاقب بغير رحمة. وبعد أن تكرر هربه، هدده والده بأن يسجنه في أحد الأديرة لمدة طويلة، ويمنعه منعاً باتاً من رؤية زابورجي، مما جعل الفتى يواظب على دروسه بكل جد ونشاط. ولم تمض غير فترة قصيرة حتى تخطى من سبقوه من زملائه الطلبة.

كان التعليم في الجامعة، في ذلك الوقت، لا يلبي متطلبات ذلك العصر، ولا فائدة منه في الحياة العملية. وكان التلاميذ لا يستطيعون الاستفادة من علمهم، وكثيراً ما حاولوا تطبيق ما تعلموه، ولكنهم كانوا دائماً يفشلون في ذلك. بل إن المعلمين أنفسهم كانوا أكثر عجزاً من طلابهم في هذا المضمار، بسبب ابتعادهم عن التجارب العملية.

وكان أبناء الجامعة يشكلون فيما بينهم مجتمعاً مستقلاً في ذلك الوقت، وكانوا يمنعون من الاختلاط

مع طبقةِ النبلاءِ الروسِ والبولونيين . وكان التنظيمُ الجامعي يتحلَّى بروحٍ شعبيةٍ ويتشكّل من شبابٍ قويٍ خليقين بتوجيه الطلابِ الجامعيين الوجهةَ الصحيحةَ في مختلفِ النشاطاتِ المفيدةِ لهم .

وكانَ سوءُ المعاملةِ ، وتجويعُ الطلابِ باستمرارٍ ، هو السببَ في إثارةِ شتّى الانفعالاتِ في نفوسِ الطلابِ ، وخلقِ روحٍ ثائرةٍ متمردةٍ فيهم . وقد نَمَتْ هذهِ الروحُ فيما بعد ، حتى شملَت مدينةَ زابورجي كلَّها .

وكانَ الطلبةُ الجائعون الذين يطوفون شوارعَ كييف مصدرَ تهديدٍ دائمٍ لمواطنيها ، حتى كانت نساءُ الأسواقِ حينما يلمحن هؤلاءَ الطلبةَ يخفين فطائرَهُن خوفاً من استيلائِهم عليها بالقوة .

كانت مهمّةُ المشرفِ على الطلابِ في الجامعة ، مراقبةَ تصرفاتِهم ومنعَهم من القيامِ بأيِّ عملٍ يكونُ منافياً لقوانينِ الجامعة . وكان « آدم كيزل » عميدَ الجامعةِ قد أمرَ بأن يظلُّوا بعيدين عن المجتمعِ خارجَ جامعتِهم ، وأمرَ بمراقبتِهم مراقبةً شديدةً . ولكنَّ

هذهِ الرقابةَ لم تكن ضروريّة . لأنَّ الطلابَ لم يكونوا يَسلمون من ضرباتِ العصيِّ والسِّياطِ التي كان أساتذتُهم ينهالون عليهم بها .

وعلى الرغمِ من أنَّ أوستاب بولبا كانَ من ألمعِ تلاميذِ الجامعةِ ، فلم يكنْ يسلمُ هو الآخر من ضرباتِ العصيِّ . وكان مِنْ نتيجةِ ذلك ، أن أصبحَ شخصيةً صُلبةً شديدةَ المراسِ وباتَ معروفاً بين زملائِه بأنّه أفضلُ الرفاقِ ، بسببِ صدقه وولائِه لهم . لمْ يخنْ رفاقَه أبداً ، ولم تستطعْ العصيُّ أو السياطُ أن تجعلَه يفعلُ ذلك . وهكذا ، فقد استحوذَتْ عليهِ فكرةٌ واحدةٌ ، ووضعَها نصبَ عينيهِ ، وهيَ فكرةُ القتالِ للدفاعِ عن الضعيفِ والمظلومِ .

أمّا أندريا فكانَ طيبَ القلبِ ، وكانَ رحيماً كأيِّ رجلٍ بوسعِه أنْ يكونَ على ذلكَ القدرِ من الحميّة . وقد تأثّرَ كثيراً عندما رأى والدتَه تذرفُ دموعَها الغزيرةَ لفراقِها . وكانَ ذلك مبعثَ حزنه الآنَ ، ممّا جعلَه يُطرقُ برأسهِ مفكراً وهو يسيرُ مع

والدهِ وشقيقِه . أمّا في الجامعةِ ، فقدْ أقبلَ على العلمِ بكلِّ جدٍّ ونشاطٍ ، وكانَ أكثرَ إبداعاً من أخيه . وكثيراً ما أنقذَتْه سرعةُ بديهتِه من العقابِ . والواقعُ أن هذا الفتى كان يتوقُ للأعمالِ البطوليةِ ، مثلما كان قلبُه يتفاعلُ بالمشاعرِ الأخرى . وحينما بلغَ الثامنةَ عشرةَ من عُمرِه ، تفتّحَ قلبُه للحبِّ . وبدأتِ المرأةُ تظهرُ في أحلامِه . فكان يُخفي هذه الأشواقَ الزاخرةَ لديهِ عن رفاقِه ، لأنَّ التفكيرَ بالحبِّ قبلَ الذهابِ إلى الحربِ ، في ذلكَ الزمنِ ، لم يكنْ يليقُ بالقوزاقي الأصيلِ بل يعتبرُ وصمةَ عارٍ له .

كان أندريا كثيراً ما يخرجُ بمفردِهِ يتجوّلُ في ضواحي مدينةِ كييف ، حيثُ يقطنُ النبلاءُ من الأوكرانيين والبولونيين . وفي إحدى جولاتِه هذهِ قرّرَ أنْ يدخلَ إلى الحيِّ الارستقراطيِّ حيثُ البيوتُ مشيدةٌ على أحدثِ طرازٍ . وفيما كان يقفُ هناك مندهشاً من جمال زخرفةِ شُرفاتِها، كادتْ مركبةُ أحدِ النبلاءِ أن تجتاحَه في طريقِها ، لولا أنْ عاجلَه سائقُها

بضربةٍ من سوطِه ، جعلتِ الدمَ يجمدُ في عروقِه . ولكنَّه ما لبثَ أن استعادَ رباطةَ جأشِه . فاسرعَ خلفَ العربةِ ، وبجرأةٍ كبيرةٍ ، أمسكَ بعجلتِها الخلفيةِ بيده القويةِ ، وأوقفَ العربةَ .

خافَ حوذيُّ العربةِ من انتقامِ أندريا ، بعدَ أن شاهدَ قوّتَه ، فألهبَ ظهرَ جيادِ العربةِ بسوطِه ، فأخذتْ تعدو ، وسقطَ أندريا ، أرضاً وتلطّخَ وجهُه بالوحل . وفي تلكَ اللحظةِ تعالتْ ضحكاتٌ عذبةٌ موسيقيةٌ رنّانةٌ . فنظرَ أندريا إلى مصدر تلك الضّحكاتِ وأبصرَ فتاةً جميلةً تقفُ أمامَ نافذةِ أحدِ البيوتِ القريبة .

أُخِذَ أندريا بجمالِ تلكَ الفتاةِ ، التي كانتْ لا تزالُ تطلقُ ضحكاتِها الرنانةَ ، ممّا زادَ جمالَها في عينيه.. فوقفَ ينظرُ إليها مشدوهاً ، وقد شعرَ بالخجلِ من جرّاء سقطتِه واتّساخِ ملابسِه . فأخذَ يمسحُ الوحلَ الذي كانَ قدْ علِقَ بوجهِه وملابسِه . ولم يعلمْ أنّه بعملِه هذا قد زادَ اتساخاً عمّا كان عليه مِن قبلْ .

أخذ أندريا يتساءلُ في نفسِه عمَّنْ تكونُ هــذهِ الفتاةُ الساحرةُ . أمَّا الفتاةُ فقدْ تراجعتْ عن النافذة .

وبدأَ أندريا يستفسرُ مِن الناسِ الذين كانوا قد تجمّعوا هناك عن الفتــاةِ ، ولكنّــهُ لم يحظَ بأيّ ردٍ مرضٍ .

بَيْدَ أنه علمَ في النهايةِ أنَّ الفتاة لم تكن غير ابنــةِ حاكمِ كوفنو ، وقد قدِمت في زيارةٍ إلى كييف برفقةِ والدِها .

قرَّرَ أندريا العودةَ إلى هناك مرةً أخرى وهكذا ، تسلَّلَ في الليلة التالية عبرَ السياجِ إلى حديقةِ المنزلِ ، ثمّ تسلَّقَ شجرةً كانت أغصانُها قريبةً من السطحِ . فلمّا وصلَ إلى هناك عادَ وهبطَ بواسطة المدخنةِ إلى مخدعِ الفتاةِ الذي كان صاحبُنا قد حدَّد مكانَه من قبل.

ذُعرتِ الفتاةُ عندما رأتْ هذا الرجلَ الغريبَ داخلَ مخدعِها ، ولمْ تقوَ على الكلامِ أو الاستغاثةِ ، بلْ ظلَّتْ تنظرُ مشدوهةً إليه والرعبُ يعقدُ لسانَها .

ولكنّها ما لبثَتْ أنْ تبيَّنتْ فيهِ ذلك الطالبَ الذي كانتِ العربةُ قد أوقعَتْه في الطريقِ ، فزالَ خوفُها وأخذتْ تضحكُ من جديد .

أمَّا أندريا ، فقدْ ظلَّ يقفُ في مكانِهِ مبهوتاً وقد غضّ ببصرهِ عنها من شدّةِ ارتباكِه . كانتْ تلكَ هي المرّةَ الأولى التي وجدَ نفسه فيهــا منفرداً مع إحدى الفتياتِ الجميلات .

تشجَّعَتِ الفتاةُ البولونيةُ اللعوبُ عندما رأتْ ارتباكَ أندريا ، فأخذتْ تمازحُه وقد ركَّزَت عينيها الرائعتين عليه . أمّا هو ، فقدْ أصبحَ منظرهُ مدعاةً للضحكِ والرثاء .

وفيما هما كذلك سمعا طرقاً على بابِ الغرفةِ فجأةً . فأمرتْه الفتــاةُ أن يختبىءَ تحتَ السريرِ حتى ترى مَن الطارق. ومــا إن خلا الجوُّ مرةً أخرى ، حتى استدعَتِ الفتاةُ وصيفتَها التترية ، وطلَبتْ منها أن تقودَه إلى الخارج .

لم يكنْ أندريا محظوظاً هذهِ المرة . فقد شعرَ به الحارسُ الذي كان قد استيقظَ على وقعِ خطواتِه ، وأخذَ يوسعُه ضرباً ، فيما اندفعَ خدمُ البيتِ الآخرون خلفَه وهمْ يضربونَه. ولمْ يتمكَّنْ أندريا من الإفلاتِ

إلاَّ بصعوبةٍ كبيرةٍ . ومنذُ تلك الليلةِ ، لم يعُدْ يجرؤ على الاقترابِ من ذلكَ المنزلِ .

غير أنَّ أندريا تمكَّنَ مِن رؤيةِ الفتاةِ مرَّةً أُخرى في إحدى الكنائسِ ، وحينَ رأتْه الفتاةُ حيَّته بإيماءةٍ من رأسِها وهيَ تبتسمُ له . وبعدَ ذلكَ ارتحلَ والدُها عن المدينةِ ، وحلَّ مكانَه في المنزلِ أُناسٌ آخرون .

كانت هذه الأفكارُ تدور في مخيِّلةِ الأخوَين فيا كانا متوجِّهين إلى زابورجي برفقة والدهما . أمّا تاراس بولبا فقدْ كانت له ذكرياتُه هو الآخر . فكَّرَ في أيامِ شبابِه وودَّ لو أنها تعودُ إليه . فكَّرَ في زملائِه مِن رفاقِ السلاحِ ، مَنْ ماتَ منهُم ومَنْ ظلَّ على قيدِ الحياةِ . وبدتْ في عينيه دمعةٌ حزينةٌ ومالَ رأسُه إلى الأمامِ وقد عمَّهُ الاكتئاب .

لكنَّه سرعان ما أفاقَ من أحلامِه وتأمُّلاتِه ، وصاحَ قائلاً :

ـ لماذا أراكما صامتَين ، يا أبنائي ، ولماذا تظهران عابسَين هكذا ؟ أُتركا أفكارَكما جانباً ، وانطلقا



اندريا يقود الطريق إلى زابورجي

بجواديكما تمتُّعاً بهذه المناظرِ الخلابةِ التي أبدَعها الخالقُ .

ولما سمعَ أوستاب وأندريا دعوةَ والدهما ، ما أسرعَ ما انحنى كلٌّ منهما فوقَ جوادِه ، وما لبث أن اختفى بين العشبِ ، فيما كانتِ الشمسُ ترسلُ أشعتَها فتدفىء بنورِها كلَّ ما كانَ رطباً .

كانتْ تلكَ البقاعُ ، التي هي روسيا الآن ، جنةً خضراءُ تموجُ بالحشائشِ النامية بوفرةٍ وسخاء . وكانتِ الخيلُ تمرُّ من خلالِها وتكادُ تختفي في وسطِها ، ولمْ يكُنْ هناكَ شيءٌ أكثرُ جمالاً وروعةً من منظرِ تلك البقاعِ . أمَّا الأرضُ فقدْ بدتْ محيطاً أخضرَ وذهبياً تبرزُ من خلالِه الأزهارُ المتعددّةُ الألوانِ والأشكالِ ، فيما كانت أصواتُ الطيورِ تملأُ الجوّ بالنّشيد والترانيم.

هنا توقّفَ تاراس بولبا ورفاقُه قليلاً ليتناولَ بعضَ الطعامِ المكوَّنِ من الخبزِ مع لحمِ الخنزيرِ المقدّدِ ، واحتسوا قدحاً واحداً من الفودكا . ثم استأنفوا سيرَهم إلى أن أقبلَ المساءُ ، فاختاروا لهم مكاناً فسيحاً يقضون فيه ليلَتَهم ، ثمَّ أوقدوا النارَ وأخذوا يجهّزون طعام

العشاءِ . وبعدَ العشاءِ قادَ القوزاقُ جيادَهم المتعبةَ إلى مرعى قريب ، ثمَّ تمدَّدوا فوقَ عباءآتِهم واستسلموا للنَّوم .

لم يواجه المسافرون أيةَ عقباتٍ على الطريق . وقد أشارَ تاراس مرةً لولديه إلى بقعةٍ صغيرةٍ في حقلٍ بعيدٍ وقال :

ـ أنظرا إلى تلك البقعةِ الصغيرةِ ، هناكَ تتريٌ يمتطي جوادَه .

ولمْ يكنْ تاراس مخطئاً في ذلك . لقد كانَ الرجلُ منَ التترِ فعلاً ، إذ أنه ما إن رأى الفرسانَ القوزاق حتى أسرعَ يختفي من أمامِهم بسببِ كثرةِ عددِهم .

فصاحَ بولبا قائلاً :

ـ هل تريدانِ القبضَ عليه ؟ لا أعتقدُ أنه سيكونُ بوسعِكُما ذلك، فجوادُه أسرعُ من الشيطان ، ولنْ تستطيعا اللحاقَ بهِ وهوَ على مثلِ هذهِ المسافةِ البعيدةِ .

وخشيةَ أن يكونَ لهذا التتري رفاقٌ ، يكمنون لهم

على الطريق ، لجأ تاراس إلى الحيلةِ . فوثبوا إلى نُهيرٍ صغيرٍ كان يصبّ في نهر الدنيبر ، وأخذوا يسبحون في الماءِ مع جيادِهم ليضلّلوا الأعداء . وبعدَ أن سبحوا مسافةً طويلةً ، عادوا وخرجوا من الماء واستأنفوا سيرَهم بمحاذاةِ ضفةِ النهر .

وصلَ تاراس بولبا ورفاقُه إلى مسافةٍ قريبةٍ من المكانِ الذي كانوا يقصدونَه ، بعد مسيرةِ ثلاثة أيامٍ ، وأحسّوا أنّ نهر الدنيبر أصبحَ قريباً منهم ، بعدَ أن رأوا مياهَه تتلألأُ تحت أشعّةِ الشمسِ . أمّا الطقسُ فكانَ قد أصبحَ بارداً ، وأخذتِ الرياحُ الباردةُ تهبُّ مِن كلّ جانبٍ .

ترجّلَ القوزاقُ عن جيادِهم . وصعدوا إلى أحدِ المراكبِ الذي أوصلَهم إلى شاطىء جزيرة خورتيشا حيث يقيمُ شعبُ الستش . وما إن وصلوا إلى هناك حتى أسرعَ قوزاقيان في شدّ أحزمةِ سروجِ جيادِهم ، فيما اتّخذ تاراس بولبا مظهرَ الجدّ وهو يشدّ حزامَه ، أمامَ الناسِ الذين كانوا يحتشدون هناكَ . ثمّ امتطى

الكلُّ جيادَهم وساروا متّجهينَ نحو الضاحيةِ التي كانت تبعدُ مسافةً قليلةً عن المعسكرِ .

وعندما وصلَ تاراس بولبا ورفاقُه إلى هناك ، أصمّت آذانَهم أصواتُ مطارقِ الحدّادين الذين كانوا يعملونَ في ورَشٍ كانت مقامةً فوقَ قطعةٍ من الأرضِ ، يعلوها جميعَها سقفٌ واحدٌ من الحشائشِ . وكان أولُ رجلٍ التقَوه قوزاقياً من زابورجي مستلقياً في وسطِ الطريقِ ، وهو مستغرقٌ في النومِ . ولم يَسعْ تاراس بولبا إلاّ الوقوفَ لكي يتأملَه بإعجابٍ .

وبعدَ أن عبّر تاراس عن إعجابهِ بهذا القوزاقيّ واصلَ سيرَهُ مع رفاقِه في طريقٍ احتشدَ فيه أناسٌ من مختلِف الجنسياتِ ، كانوا يتزوّدون بحاجياتهم من المتاجرِ التي كانت قائمةً على كلا الجانبين .

غادر المسافرونَ الطريقَ الضيقَ وشاهدوا بعضاً من أكواخِ القوزاقِ التي كانت مبعثرةً هناكَ ، وكان بعضُها محاطاً بالمدافع . وكانت هذه الأكواخُ ذاتَ سقوفٍ

منخفضةٍ تنعقدُ فوقها الحشائشُ ويغطيها اللبّادُ حسبَ الطرازِ التتري .

كان السورُ المنخفض غيرَ محروسٍ بكليّته ، وكان عددٌ قليلٌ من القوزاقِ يرمقونَ تاراس بولبا ورفاقَه دونَ مبالاةٍ ، فأخذَ تاراس وولداهُ طريقَهم إلى أن وصلوا شرذمةٍ أخرى من القوزاقِ كانوا يتناولونَ طعامَهم . فتقدّمَ منهم تاراس وقالَ لهم :

ـ أسعدتُم صباحاً أيُّها الإخوان .

فأجابَه الزابورجيون : « ونهارُكَ أسعدُ » .

ثمَّ دعوهُ معَ رفاقِه لمشاركتِهم الطعام .

كانتْ وجوهُهم الداكنةُ تدلّ على أنهم قد خاضوا معاركَ كثيرةً وتعرّضوا لكلِ ضروبِ الشدائدِ . ولمَ لا، وهو المعسكرُ ، هنا . كان عرينُ أولئكَ الأسودِ من أبناءِ القوزاقِ الأقوياء ، ومن هذا المكانِ انبعثَتْ الحريةُ وانتشرت الروحُ القوزاقيّةُ في جميعِ أنحاءِ أوكرانيا .

اتّجهَ تاراس بولبا نحو الساحةِ الكبيرةِ حيثُ كان الزعماءُ القوزاقيون يعقدون اجتماعاتِهم في العادةِ ، فاعترَضتْهم إحدى الفرقِ الموسيقيّة التي كان يتوسطُها شابٌ زابورجي يرقُص رقصةَ القوزاقِ الوطنيةِ وذراعاهُ منبسطتان وقبّعتُه مائلةٌ ، فيما كانتْ إحدى الفتياتِ القوزاقياتِ الجميلاتِ تملأ الكؤوسَ بالفودكا لكلٍّ من يطلُبها .

ازدادَ إقبالُ جماهيرِ القوزاقِ على حلقةِ الرقصِ ، كما شاركَ بعضُهم في الرقص مع الشابِ القوزاقي ، فكانوا يدقّونَ بأقدامِهم وجهَ الأرضِ في حماسٍ كبيرٍ ، يقفزونَ ويدورون وقد أخذَ العرقُ يتصبَّبُ من أجسادِهم . وكانَ من المستحيلِ على المشاهدينَ أنْ يمتلكوا أنفسَهم ولا يشاركوا في هذا الرقصِ الطليقِ الحر ، الذي أطلقوا عليه إسم « القوزاقية » .

وهتفَ تاراس بولبا :

ـ وددتُ لو عدتُ شاباً ، إذنْ لنزلتُ عن جوادي وشاركتُ فيه .

أخذتْ بعضُ الوجوهِ من رجالِ القوزاقِ القدامى تظهرُ هنا وهناكَ في الساحةِ ، وسطَ هذا الجمعِ الحاشدِ ، وقدْ تعرّفَ تاراس بولبا سريعاً على بعضِ هذه الوجوهِ. وكان أوستاب وأندريا لا يسمعان سوى هـذه العباراتِ التي كان يطلقُها والدُهما :

ـ أهلاً بك يا كزولوب ، طابَ يومُك يا تبشيريتا ، كيف الحالُ يا دولوطو ؟ مرحبًا بكَ يا كيردياغـا ، وأنتَ يا غوسطي !

ثم أخذَ تاراس بولبا يتبادلُ القبلاتِ والعناقَ مع هؤلاءِ الأبطالِ الذين وفدوا إلى هناكَ بغيةَ استطلاعِ أخبارِ بعض أصدقائِهم الغائبين من شجعان القوزاق .

كانتِ الإجاباتُ التي سمعَها تاراس بولبـا ردّاً على تساؤلاتِه تدلُّ على أن بعضَ هؤلاءِ الأصدقاءِ مثل برودافكا ، وكولوبيدر ، وسيشوك قد قتلهم الأعداءُ ونكّلوا بجثثِهم في أماكن مختلفةٍ ، مما جعلَ تاراس بولبا يشعر بالأسى والحزنِ عليهم . فأحنى رأسَهُ وتمتمَ قائلاً :

ـ لقد كانوا قوزاقيّين صالحين. لقد ضحّوا بأرواحِهم فداءً لوطنِهم وأمّتِهم . فليرحمْهم اللهُ وليجعلْهم الشعلةَ المضيئةَ التي يهتدي بها شعبُ القوزاقِ العظيم .

٣

قضى تاراس بولبا وجماعتُه قرابةَ الأسبوعِ في الستش، ولم يشتركْ أوستاب وأندريا في التدريباتِ العسكريّةِ التي كانت تجري هناكَ إلاّ نادراً. كان القوزاقُ قد ملّوا تلكَ التدريبات، بعد أن خاضوا معاركَ كثيرةً أبلَوْا فيها بلاءً حسناً، ونالوا الكثيرَ منَ التدريبِ عن طريقِها. لذا كانت تدريباتُهم الآنَ لا تتجاوزُ إصابةَ بعضِ الأهدافِ المحدّدة في الساحةِ، أو مطاردةَ الحيوانات البريّةِ واصطيادَها. أمّا معظمُ أوقاتِهم فكانوا يقضونَها في المرحِ وشربِ الفودكا.

كانتْ أيامُ معظم أهلِ الستش أعياداً متصلةً: لهواً

وشراباً، إلاّ قلةً منهم كانوا يزاولون خدمةً أو مهنةً. ولكنّ هؤلاءِ ايضاً، كانوا يصرفون ما يكسبونَه من عملهم على شراءِ الشراب. كانت حياتُهم ثورةً صاخبةً مستمرةً، وقد ولّدَ ذلك لديهم نوعاً من الحياةِ المرحةِ التي لا تعرفُ الهموم.

كانتِ القصصُ والرواياتُ المثيرةُ تنتشرُ بينَ الجماهيرِ هناكَ. وكانت جميعُ هذهِ القصصِ تحرّكُ لديهمْ مشاعرَ الإثارةِ والحماسِ، فلا يستطيعون الاحتفاظَ بوقارِهم، وسريعاً ما تظهرُ الانفعالاتُ على اوجوهِهِم الجامدة. هذهِ هيَ الصفاتُ التي تميّزُ أهالي جنوبِ روسيا عن باقي المواطنين.

كانَ رفاقُ المدرسةِ يجتمعون في هذا المكانِ، فتتوثّقُ بينهُمْ عرى الصداقةِ والمحبّةِ، ويُشاركون جميعاً في القيامِ بواجبِهِمْ الوطني والدفاعِ عن تراب بلادِهِمْ ضدَّ أي عدوٍّ غادرٍ كلّما اقتضتِ الحاجةُ إلى ذلك، بالإضافةِ إلى بعضِ الغزوات التي كانوا يقومون بها داخلَ أراضي الأعداءِ، للفوزِ ببعضِ الغنائم.

هؤلاء هم الابطالُ الذينَ هجروا مساكِنَهم وتركوا عائلاتِهم ليعيشوا أحراراً بعيدين عن كلِّ ضغطٍ من أيةِ جهةٍ كانت ، ليستمتعوا بالحياةِ ، رغم أنَّ جيوبهم كانت تظلُّ فارغةً في معظمِ الأوقاتِ ، وذلك بسببِ جشعِ المرابين اليهود . ولكنْ ما من فردٍ وطئتْ قدماه هناك إلاّ ونسيَ متاعبَهُ واندفع بكليّتِهِ في تلك الحياة الصاخبةِ المرحةِ ، والطليقةِ من كلِّ قيدٍ .

كانَ يوجدُ هناكَ أيضاً لفيفٌ من الضباطِ والرجالِ البارزينَ الذينَ صهرتْهُم التجاربُ ممَّن كانوا يؤمنون أنَّ الحياةَ كفاحٌ دائمٌ ، وأنهُ لا يليقُ بالرجلِ الحرِّ أن يستكينَ أو يهدأَ ، بلْ عليهِ أنْ يواصلَ الكفاحَ دائماً من أجلِ حياةٍ حرةٍ كريمة .

كانتْ تلكَ الجمهوريةُ وليدةَ عصرِها ، فإليها تقاطرَ جميعُ المولعينَ بالحرب للإفادةِ منها في جميعِ الأوقاتِ . أمَّا بالنسبةِ لأوستاب وأندريا فقد أعجبهما كثيراً أن يريا هذه الجموعَ الغفيرةَ تأتي إلى هناك ، دون أن يبادرَهما أحدٌ بالسؤالِ عن هويتِهِمَا ، أو المكانِ الذي

جاءا منه . كان الناسُ يأتونَ إلى هناكَ وكأنَّهم عائدونَ إلى منازلِهم . وكانوا يؤدونَ شعائرَ الدينِ في كنيسةٍ واحدةٍ ، وهم على استعدادٍ لأن يدافعوا عنها حتى آخرِ قطرةٍ من دمائِهم .

ولم يكنْ يجرؤ على الاقامةِ بينهمْ أو التعاملِ معهُمْ غيرُ فئةٍ قليلةٍ من اليهودِ الجشِعين الذين كانوا يستغلّونَهُمْ في المعاملةِ إلى أبعدِ حدودِ الاستغلالِ . ولكن ، الويلُ لهؤلاءِ اليهودِ عندما كان الزابورجي يبدّدُ ما في جيوبِهِ من المال ! عندَ ذاكَ لا يتورّعُ عن مهاجمةِ متاجرِهمْ وحوانيتهم والاستيلاءِ على كلِّ ما يحتاجُهُ دونَ أن يدفعَ أيَّ مقابل ، فإذا صاحَ اليهوديُّ ألقمَهُ الزابورجيّ حذاءً عتيقاً .

كانتْ قبائلُ السّتش تتألف من ستّينَ مقاطعةٍ أطلقوا عليها اسم « كيرون » وكانتِ الواحدةُ منْ هذهِ المقاطعاتِ أشبهَ بجمهوريةٍ مستقلةٍ . أما سكّانُ هذهِ المقاطعاتِ فلمْ يفكّرُ أحدٌ منهم في شراءِ قطعةِ أرضٍ أو امتلاكِ بيت .. كانوا يسلّمونَ كلَّ شيءٍ إلى رئيسِ

المقاطعةِ الذي كانوا يلقّبونَه بالأب، حتى باتَ كلُّ شيءٍ تحتَ سيطرتِه: المالُ والكساءُ، وحتى الغذاءُ. فكانوا يأخذونَ ما يحتاجونَ إليهِ كلَّما دعتهمُ الحاجةِ إلى ذلك.

أعجبتْ هذهِ الحياةُ الصاخبةُ والمرحةُ أوستاب وأندريا، فاندمجا في مجالسِ الشباب. وسرعانَ ما نَسِيا بيتَهما واستسلما إلى حياتِهما الجديدة. لقد أعجبَهما كلُّ شيءٍ هناك: عاداتُ الستش، وقوانينُها، حتى التي كانتْ تبدو قاسيةً أحياناً في مثلِ هذهِ الجمهوريةِ المنفتحةِ الحرّة. ولمْ يمضِ غيرَ وقتٍ قصيرٍ حتى فازَ الشابان بثقةِ وإعجابِ القوزاقيّين، لما كانا يبديانه من مهارةٍ وشجاعةٍ، وصارا يرافقانهم في رحلاتِهم، وحُسنِ حظهمْ الذي لمْ يكنْ يفارقهمْ أبداً.

ولقد أصبحَ أوستاب وأندريا، مع مضيّ الوقتِ، منْ أمهرِ الرماةِ وأشجعهمْ، بالإضافةِ إلى أنّهما كانا من السبّاحينَ الماهرين. لقد استطاعا عبورَ نهرِ الدنيبر سباحةً ضدَّ التيارِ.. وكان هذا العملُ في نظر القوزاقِ

عملاً بطولياً يؤهّلُ صاحبَه لنيلِ لقبِ «بطل» ولأنْ يُعتبرَ من القوزاقيينَ الظافرين.

أما تاراس بولبا فلمْ تعجبْه هذهِ الحياةُ الناعمةُ البعيدةُ عن الحربِ والقتال. لقدْ كانت لديهِ مخططاتٌ أخرى للقوزاقِ، ولم يكنْ من ضمنِها هذه الحياةُ العاديّةُ الرِّخوه. كانَ يفكّرُ كيفَ يجعلُ قبائلَ الستش تقومُ بمغامرةٍ حربيةٍ رائدُها الفروسية.

أخذَ تاراس يفكّرُ كثيراً في الطريقةِ التي يتوصَّلُ بها إلى هدفِه، وفي النهايةِ قرّرَ الذهابَ إلى الرئيسِ كوشيفوي ومفاتحته بالأمر. وما إنْ توصَّلَ إلى قرارِه هذا، حتى أسرعَ لزيارةِ الرئيسِ. وهناكَ أطْلعَه على ما كان يدور بخَلَدِه، وقال:

ـ أظن يا كوشيفوي، أنَّهُ قدْ آنَ الأوانُ لنتخلّى عنْ هذهِ الحياةِ الكسولةِ وننزلَ إلى الميدان.

ـ وأينَ تريدُنا أنْ نذهبَ، يا تاراس؟

ـ إنَّنا نستطيعُ مهاجمةَ التترِ أو الأتراكِ أو غيرِهم مِنَ الأعداء.

ـ ولكنْ ، لأيِّ سببٍ نفعلُ ذلك ؟

ـ ماذا تعني بقولِكَ هذا ؟ لمْ نكنْ نفتِّشُ عنِ الأسبابِ عندما كنَّا نقومُ بغزواتِنا في الماضي . ألمْ يعدْ يحقُّ لأهالي زابورجي أنْ يذهبوا إلى الحربِ ، إلاَّ إذا كانَ هناكَ داعٍ لذلك !

ـ ليسَ هذا ما أعنيهِ ، يا تاراس ، ولكنَّ الإنسانَ لا يذهبُ إلى الحربِ حبّاً بالحرب .

ـ هلْ تعني أنَّ قوةَ القوزاقِ يجبُ أنْ تذهبَ هدراً ؟

إعلمْ يا كوشيفوي ، أنّني قد حضرتُ إلى هنا برفقةِ ولدي ، وكلٌّ منهما شاب لم تعرُكْهُ الحربُ . هل يجبُ عليهما أنْ يموتا دونَ أنْ يقوما بعملٍ ما ، يفيدُ منه وطنُهما ؟ أخبِرْني إذاً ، من أجلِ أيِّ شيءٍ نعيشُ الآن ؟

لكنّ كوشيفوي لمْ يردَّ على تساؤلاتِ تاراس على الفورِ بلْ ظلَّ صامتاً لبعضِ الوقتِ ، وأخيراً رفعَ رأسَهُ وقال :

ـ لا يوجدُ هناكَ حربٌ تستدعي اشتراكَ القوزاقِ فيها في الوقتِ الحاضرِ ، ولا داعيَ هناك لإثارةِ مثلِ هذهِ الحربِ الآن .

لمْ يُعجبْ كلامُ الرئيس كوشيفوي ، تاراس بولبا ، فقرّر في نفسِهِ الانتقامَ منه بسببِ تخاذُلِهِ هذا . وهكذا غادرَ بولبا بيتَ الرئيسِ وذهبَ إلى أصدقائِهِ ، فدعاهُمْ إلى تناولِ الشَّرابِ معهُ . وما أن أفرطوا في الشرابِ ولعبتِ الخمرُ برؤوسِهِم ، حتى أخذَ يستثيرُ حميَّتَهم ويحرّضهم على الدعوةِ إلى خلعِ كوشيفوي، ويحثُّهم على القيامِ بعملٍ ما ، ينهي تلكَ الحياةَ الكسولةَ التي كان يعيشُها أبناءُ القوزاق .

وسرعانَ ما اتَّجهوا شطرَ الميدانِ حيثُ توجدُ الطبولُ التي كانَ يستعملُها القوزاقُ عندَ الدعوةِ إلى الحربِ ، وأخذوا يقرعونَها . وسمعت جماهيرُ زابورجي قرعَ الطبولِ فأخذتْ تتجمَّعُ في المكان . ثم أخذَ الحماسُ منها كلَّ مأخذٍ ، وأخذتْ هتافاتُها تدوي في أرجاءِ الساحةِ ، ممّا جعلَ كوشيفوي يهرعُ مع بعضِ زعماءِ القوزاقِ الآخرين ليستطلِعوا الأمر .

تقدَّمَ كوشيفوي وسألَ عن الغـايةِ من قرْعِ الطبولِ ، وعمـا يبتغـونه من وراء ذلك ، ولكنـه وُوجِهَ بصرخـات الجماهيرِ الغاضبةِ ، وصيـاحِ القوزاقيّين :

— لا نريدكَ رئيساً لنا بعدَ اليومِ ، أيها العجوز المتخاذلُ ، إستقِلْ ودعِ القيادةَ لمنْ هم أكفأُ منك ، فنحن لمْ نعد بحاجةٍ لأمثالِك .

وقد حاولَ بعضُ العقلاءِ من زعمائهم تهدئةَ ثورةِ الجماهير ، وبدا أنهم غيرُ راضين عمـا حصل . أمـا كوشيفوي ، فقدْ حاولَ أنْ يتكلَّمَ معَ الجماهيرِ ، ولكنَّها لمْ تمكِّنْه مِنْ ذلك ، فبـادر إلى الانسحابِ حينَ سيطرَ الجمهورُ الثائرُ على الموقف .

وهنا تقدَّمَ القاضي وسألَهمْ :

— أتُريدونني أنْ أستقيلَ أنا أيضاً ؟

— كلاَّ ، بلْ استمرَّ في عملِك . إنَّنا أردنا فقطْ طردَ العجوزِ كوشيفوي ، وتعيينَ رئيسٍ جديدٍ يكونُ أكثرَ شجاعةً منه .

— ومنْ تريدونَ انتخابَهُ بدلاً عنه ؟

وهنا أخذَ كلٌّ فريقٍ منهم ينادي اسمَ مرشَّحِه .

فالبعضُ أرادَ كوكوبينكو .

وأرادَ البعضُ الآخرُ ، شيلو .

فيما نادى فريقٌ ثالثٌ إسمَ « برواداتي » .

ثم عمَّتِ الفوضى فيما بينهم .

وهنا همسَ تاراس بولبا قائلاً :

— نادوا باسم كيردياجا .

وعلى الفورِ ، صاحتِ الجماهيرُ الصاخبةُ :

« نريدُ كيردياجا ! نريدُ كيرديـاجـا ! إذهبوا وأحضِروا كيردياجا » .

فتوجَّه عددٌ من القوزاقِ على الفورِ ، إلى حيثُ كان الرجلُ يجلسُ ، ليُعْلِموهُ بانتخابِه رئيساً لهم .

كان كيرديـاجـا هذا رجلاً طاعناً في السنِّ ، ومن أبطالِ القوزاقِ السابقين . وقد سألَ الذينَ حضروا إليهِ عمَّا يريدونَهُ منه ، فأبلغوه رغبةَ الجماهيرِ بانتخابه رئيساً بدلاً عن كوشيفوي . وحاولَ أنْ يعتذر

عن قبول المنصب بسبب كبر سنه . ولكنهم لم يستمعوا إليه ، بل أمسك اثنان منهم بذراعيه وقاداه إلى حلقة مستديرة كان القوزاقيون قد تجمعوا حولها. وهناك بادر القاضي جموع المحتشدين قائلاً :

ـ هل توافقون جميعاً على انتخاب كيردياجا رئيساً لكم ؟

فصاح الجميع بصوت واحد قائلين :

ـ « نعم ، نعم ، نوافق ».

تقدم أحد الزعماء عندئذ ، وقدم عصا الرئاسة إلى الرئيس الجديد الذي رفض قبولها مرتين ، ولكنه قبلها في المرة الثالثة ، وكان ذلك تقليداً متبعاً لهم في مثل هذه المناسبات .

وتعالى هتاف الجماهير بحياة الرئيس الجديد . وبرز من وسط الصفوف أربعة من الرجال المسنين ، فامسك كل منهم بحفنة من التراب ورشها فوق رأس كيردياجا ، فيما أخذ هو يقدم شكره للقوزاقيين على الشرف الذي أولوه إياه بانتخابه رئيساً لهم .

هكذا انتقم تاراس من كوشيفوي ونجح في جعل كيردياجا صديقه القديم ، الذي شاركه نفس المعارك ، وقاسمه حياة الجندية بخيرها وشرها ـ الرئيس الجديد للقوزاقيين .

وانتهت مراسيم التعيين فتفرقت الجماهير وراحت تحتفل بهذه المناسبة السعيدة . ولم يمض غير وقت قليل حتى عمت الفوضى وانتشر الشغب بشكل لم يشهد أوستاب وأندريا مثيلاً له من قبل .

هكذا قضى أهالي زابورجي ليلة انتخاب رئيسهم الجديد .

* * *

بدأ تاراس بولبا محادثاته مع الرئيس الجديد ، في صباح اليوم التالي ، للبحث عن أفضل السبل ليصرف أهالي زابورجي عن حياتهم الكسولة ، حياة اللهو والمرح ، ولإيقاظ روح القتال في نفوسهم .

كان الرئيس الجديد خبيراً بطبائع هؤلاء الزابورجيين ، ويعلم أنه لا بد له من مجاراتهم فيما

اعتزموه. ولكنَّهُ، كان من ناحيةٍ أخرى، يقدِّرُ كلمةَ الشرفِ ويتقيَّدُ بها، ولا يحاولُ الحنْثَ بها مهما كانتِ الأسبابُ. لِذا حاولَ إيجادَ طريقةٍ أخرى يخفِّفُ بها من غُلوائِهِمْ، دونَ أنْ يُتَّهَمَ هو الآخرُ بالتخاذُلِ والخيانةِ مثلَ كوشيفوي.

وبعد تفكيرٍ عميقٍ قال:

- ليس بوسْعي، كرئيسٍ للزابورجيين، أنْ أحنثَ بالوعدِ الذي قطعناهُ لسلطانِ الأتراكِ، بعدمِ الاعتداءِ على أراضيه، أو أنْ أحرِّضهمْ على القيامِ بأي عملٍ عدوانيّ دونَ مبررٍ. ومَعَ ذلكَ، فأنا أُوافقكَ، يا تاراس، على أنَّهُ من الضروريِّ أنْ نُعيدَ إليهم روحَ القتالِ التي افتقدوها من جرَّاءِ هذهِ الحياةِ الكسولةِ. لكن، هناكَ طريقةً أخرى يقعُ عبءُ تنفيذِها عليكَ!

أدعُ القومَ إلى الاجتماعِ في الساحةِ، وما أنْ يتمَّ ذلكَ، حتى أخرجَ أنا مع باقي الزعماءِ، فنُسْرِعَ إلى هناكَ، وكأنَّنا قد فوجئنا بهذا الاجتماعِ. وعندها

سوفَ آخذُ المبادَرَةَ وأتحدَّثُ إليهم، وسنرى ما يمكننا عملُه.

أعجبتْ هذهِ الفكرةُ تاراس بولبا، فاستأذنَ مودِّعاً، وخرجَ متوجِّهاً إلى ميدانِ الطبولِ. وهناك أوعزَ لجماعتِهِ أنْ يقرعوها. وما لبثتِ الجماهيرُ أنْ بدأتْ تتدفَّقُ على الساحةِ.

وحسْبَ ما أوحى به تاراس، أخذتْ بعضُ الأصواتِ ترتفعُ بالشكوى من تلكَ الحياةِ المملَّةِ التي كانوا يعيشونها، ثم ما لبث أنْ شاركَ الجميعُ في ذلك وأخذوا يتساءلونَ عن جدوى مثلِ هذه الحياةِ، وقالوا:

- ليسَ من العدلِ أن نضيعَ قوَّتنا سُدى، نحنُ القوزاق. لا حربَ، ولا قتالَ، بل حياةُ خمولٍ وكسلٍ. لماذا؟ لأن زعماءَنا قد أعجبَتْهُمْ هذه الحياةُ الناعمةُ، فقنعوا بها واستسلموا لها، ولم يعدْ يهمُّهُمْ غيرُ مَلءِ بطونهم التي أصبحتْ مكتنزةً من كثرةِ الأكلِ.

وأخيراً تقدَّمَ الرئيسُ إلى الأمامِ ووجَّهَ حديثَهُ إلى الجموعِ المحتشدةِ وقال:

– إسمحوا لي أيها الإخوان، أبناء زابورجي، أن أوجه حديثي هذا لكم. لقد أردت أن ألفت انتباهكم إلى حقيقة مؤلمة أنتم أدرى مني بها. وهي: لا يوجد أحد بينكم ليس مديناً لهؤلاء اليهود الذين يستغلونكم ويجردونكم من كل ما تملكه أيديكم من المال بطريقة أو بأخرى.. وعندما كانت تخلو جيوبكم من المال، كنتم تجدونهم يمتنعون عن إقراضكم إلاَّ مقابل فوائد مرتفعة وشروط قاسية. وليس ذلك، إلا لأنَّ سيوفكم أصبحت صدئة من طول إغمادها. حقاً، إنَّ الزابورجيّ لا يمكنه إلاَّ أن يقاتل حتى يحافظ على كرامته.

ولكن أرجو أيها السادة أن لا يتبادر إلى ذهنكم بأنني أقول هذا الكلام بغية تحريضكم ضدَّ أحد، أو بغية تهديد السلام. معاذ الله أن أفعل ذلك، ولكنني أتحدث عن حقيقة واقعة، كلكم تعرفونها. ليس الغرض من حديثي هذا أن أستثيركم لكي تشنّوا الحرب على أيّ كان، وبوجه خاص، على جيراننا

الذين أعطيناهم كلمة شرف بعدم الاعتداء على أراضيهم، وليس من شيمة الزابورجيّ أن ينكث بوعد قطعه على نفسه.

استغرب تاراس بولبا حديث الرئيس، ولم يعرف ما كان يرمي إليه، ولكنه ظلَّ صامتاً ينتظر ما سوف يقوله بعده. أما هذا فقد واصل حديثه قائلاً:

– ومن ذلك ترون أيها السادة أنه ليس بمقدورنا أن نبدأ الحرب بصورة علنيَّة في الوقت الحاضر دون سبب أو مبرر، ولكنه بمقدورنا أن نرسل بعض شبابنا للقيام بدوريات استطلاع على شواطىء الأتراك قبل أن نقدّر خطوتنا التالية.

لاقى هذا الاقتراح القبول لدى الجماهير، فتدافع الكثير منهم يطلبون المشاركة في هذه المهمَّة حتى فاق عددهم الألف. بيد أن الرئيس لم يكن يقصد أبداً تجنيد مثل هذا العدد الكبير، بل كانت الغاية الأساسية لاقتراحه، هي أن يخفّف من غلواء المتطرفين منهم، عن طريق إرسال عدد ضئيل منهم في مهمة

لا تشكّلُ أيّ اعتداءٍ على أحدٍ . لذا فقد قالَ لهم :

– لديّ كلمةٌ أخرى ، أودُّ قولَها لكمْ ...

ولكنّ الجماهيرَ التي أصبحتْ في حالةٍ كبيرةٍ من الحماسِ ، رفضتِ الاستماعَ إليه ، وأخذتْ تهتفُ قائلةً :

– لا حاجةَ للمزيدِ من الكلامِ ، لقدْ سمعنا ما كنّا نودُّ سماعَه .

فقال الرئيس :

– إذا كانتْ هذهِ رغبتُكمْ ، فَلَكُم ما تشاؤون . أنا لستُ إلا خادماً للشعبِ . وصوتُ الشعبِ هو من صوتِ الله . وكلُ ما كنتُ أريدُ قولَهُ هو ، أنَّ أعداءنا لن يقفوا ساكتين إذا ما اعتدَينا عليهم ، ولا بدَّ أن يردّوا الاعتداءَ بمثلهِ . لهذا ينبغي أنْ نظلَّ مستعدّينَ لمواجهةِ كلِّ طارىءٍ .

انتهى الرئيسُ من إلقاءِ كلمتهِ هذهِ ، فانقسم الجمهورُ إلى جماعاتٍ وأخذوا يتناقشونَ فيما يجبُ عملهُ . وقد قرّروا إيفادَ جماعةٍ منهم إلى الشاطىءِ ليتفقّدوا

الزوارق ويجهّزوها للإبحارِ . وما هي إلاّ فترةٌ قصيرةٌ حتى أصبحَ الشاطىء يعجُّ بالزابورجيين الذين باشروا في في سَحبِ الزوارق إلى البرِ ، بغيةَ إصلاحِها .

يومذاكَ أخذَ الزابورجيون المجرّبون يدرّبونَ الشبابَ منهمْ على كيفيةِ القيامِ بالإصلاحاتِ المطلوبةِ ، وكانتْ أصواتُهم ترتفعُ على طولِ الشاطىءِ . وعلا ضجيجُ العملِ في كلِّ مكانٍ منه ، فأوقدوا النيرانَ وجعلوا القارَ يغلي فوقها منْ أجلِ استخدامهِ في إعادةِ طلاءِ القواربِ .

وفيما كانَ الزابورجيّون منهمكين في العملِ ، إذْ بهم يلمحونَ قارباً يقتربُ من الشاطىءِ .. وكانَ ركّابهُ من القوزاقِ يلوّحونَ بأيديهم ، وكان منظرهمْ يدلُّ على أنهم قد مرّوا بمحنةٍ قاسيةٍ . فلمّا وصلَ القاربُ إلى الشاطىءِ ، تقدَّمَ أحدُ الزابورجيّين الموجودين هناكَ لاستطلاعِ الخبرِ . ومنَ القاربِ نزلَ رجلٌ قصيرُ القامةِ ، ضخمُ الجثةِ ، وأخذَ يصرخُ وهو يؤشر بيديهِ . ولكن أحداً ممن كانوا على الشاطىءِ لمْ يتمكّنْ

من فهم ما كان يقوله ، بسبب الضجيج . عند ذلك توقف الجميع عن العمل ، ثم تقدم أحدهم ، وطلب من الرجل أن يخبرهم عما حدث. فقال القوزاقي وهو في أشد حالات الاهتياج :

ـ ماذا بوسعي أن أخبركم ، إن ما لدي أخبار محزنة . لا بد وأن سمعتم بما حل بقائد القوزاق على أيدي البولونيين ؟

ـ كلا ، لم نسمع بشيء ، كف عن هذا الصراخ ، وأخبرنا عما جرى ؟

ـ يا للعار ! لقد أصبحت كنائسنا تحت سيطرة اليهود الملاعين ، ولم يعد بمستطاعنا دخولها للصلاة إلا إذا دفعنا سلفاً ، رسم دخول قد فرضوه . ليس هذا فقط ، بل إنهم باتوا يدنسون بأيديهم القذرة ، القربان المقدس ، ويضعون شارتهم عليه ، قبل أن يسمحوا لنا بتناوله . وحتى اليهوديات هناك أخذن يصنعن لأنفسهن أردية تشابه أردية قساوستنا .

إن القساوسة الذين تبعثهم روما يجوبون أنحاء أوكرانيا بالجملة ..

هذا ما يحدث الآن في اوكرانيا بينما أنتم نائمون هنا ، تشربون وتلهون ، غير عابئين بما يحدث في العالم .

فقال الرئيس ، وقد أخذ صدره يغلي من الغضب :

ـ وماذا كنتم تفعلون ، ولماذا لم تقاوموا هذه الجريمة المنكرة ؟

ـ وماذا كان بمقدورنا أن نفعل ، نحن القلة ، أمام خمسين ألفاً من البولنديين ! ليس هذا فقط ، بل إن الخونة من بني قومنا قد تعاونوا معهم ايضاً . أما قائدنا البطل ، رحمه الله ، فقد شبع شواء في قدورهم بمدينة وارسو ، فيما وزعوا أشلاء بقية ضباطنا على المدن والقرى ووضعوها فوق عربات لعرضها في الأسواق والشوارع .

ما إن سمع الزابورجيون هذه القصة المحزنة حتى وجموا وكأن على رؤوسهم الطير . كان الهدوء الذي ساد الجميع يشبه الهدوء الذي يسبق العاصفة ،

والذي ما لبثَ حتى انقلبَ إلى أصواتٍ هادرةٍ تنادي بالانتقامِ من اليهودِ وقساوسةِ بابا روما .

« يا للعارْ ! أينَ أنتَ يا ابنَ القوزاق ؟ أينَ أنتمْ يا أهلَ زابورجي ؟ هل أصابتكم الذلّةُ والمسكنةُ ، حتى تتركوا اليهودَ يدنّسونَ كنائسكمْ ، والبولونيين ينكّلون بقادَتِكمُ وضبّاطكم الأبطال . الانتقام ! الانتقام ! ليس غيرَ الدمِ ما يمسحُ العارَ ! اشنقوا جميعَ اليهودِ واقذفوا بجثثِهم إلى النهرِ ليكونوا طعاماً للأسماك . وكذلك افعلوا بروما ورجالِ دينها .. »

تجاوبتْ صرخاتُ الانتقامِ بينَ هذا الجمعِ الحاشدِ ، وانفجرَ الزابورجيون في ثورةٍ عارمةٍ ، ثورةِ شعبٍ قضى حياتَه وهو يقاتلُ الأعداء ويلاحقهم أينما كانوا .

اندفعَ الجميعُ نحوَ الحيّ اليهوديّ في ضواحي المدينةِ وهمْ ينادون بالثأر ، وقد صمّموا على أنْ لا يتركوا أحداً منهم على قيدِ الحياة . وحينَ سمعَ اليهودُ هذهِ الهتافاتِ المعادية ، أخذَ الرعبُ منهم كلَّ مأخذٍ وسارعوا يحاولون الفرارَ أو الاختباء . ولكن

الزابورجيّين كانوا لهم بالمرصادِ ولمْ يمكّنوهم مِن ذلك .

وفي غمرةِ هذا الرعبِ القاتلِ ، وبعدَ أنْ شعرَ اليهودُ بأن نهايتَهم قد اقتربتْ ، عَمَدوا إلى الحيلةِ والخداع . فخرجَ أحدُهمْ وهو يرتجفُ من الفزعِ ، وأخذَ يصيحُ بصوتٍ متخاذلٍ ، كعادةِ بني قومهِ عندما يجدونَ أنفسَهم في أحدِ المآزقِ ، فيتلبّسون لباس الحرباءِ بغيةَ إنقاذِ أنفسِهم من العقابِ .

— «أرجو رحمتكم وعفوكم أيها السادةُ ، فنحن جميعاً نعلمُ ما أنتم عليهِ من طيبةِ قلبٍ وشجاعة. إنكم تعلمون أننا نعيشُ هنا ، تحتَ رحمتكم ، فلا يُعقَلُ والحالةُ هذه أنْ نقابلَ معروفكم بالإساءةِ اليكم. نحنُ إخوةٌ لكم، يا أهلَ زابورجي، ولا يُعقَلُ أنْ نتعاونَ مع أعدائكم. إنَّ هؤلاءِ القوم ليسوا من اليهودِ ، والشيطانُ وحده يعلمُ من همْ ، إنهم يستحقّونَ الموتَ ».

كانَ اليهوديُّ الخبيثُ يوجّهُ حديثَهُ هذا ، محاولاً أنْ ينالَ عطفهم ولو على حسابِ آخرين من بني قومهِ ، وكانَ يرتجفُ من الخوفِ مِثلَما ترتجفُ الريشةُ في

مهبِّ الريحِ . وما إن انتهى من حديثهِ هذا ، حتى ردَّ أحدُ الزابورجيين بقوله :

ـ خسِئتَ أيها اليهوديُّ القذر ، نحنُ لسنا بإخوةٍ ، ولنْ يكونَ ذلك أبداً . هيّا أيُّها الرفاقُ ، دعونا ننتهي من هذهِ المهمةِ ، هلمّوا نُلقي بهم إلى النهرِ ، ليَلْقَوا جزاءَ ما اقترفتْ أيديهم .

وكأنَّ الجماهيرَ كانت تنتظرُ هذه الإشارةَ ، فاندفعتْ لتمسكَ بتلابيبِ كلِّ من وقعتْ أيديهم عليهِ من اليهودِ ، وتقذف بهِ إلى النهرِ ، فيما كانَ صراخهم يتعالى في الجوّ . ولم يهدأ الزابورجيّون إلاَّ بعد أن رأوا جثث مستغِلّيهم طافيةً على وجه الماء .

أمَّا الخطيب ، فقدْ تمكّنَ من الإفلاتِ منهم بأعجوبةٍ ، وأسرعَ يحتمي بتاراس بولبا ويتعلق بقدميهِ ، وقد أخذ يستعطفُه قائلاً :

ـ أيها السيّدُ العظيم ، لقد عرفت أخاكَ دوروش ، وأنا الذي أنقذتهُ من الأسرِ عندما قبضَ عليهِ الأتراك .

فسأله تاراس :

ـ أكنت تعرفُ أخي ؟ ما اسمُكَ ؟

ـ يانكل ، يا سيّدي .

وبعدَ لحظةِ تفكيرٍ ، طلبَ تاراس من القوزاقِ أن يتركوهُ ، وقالَ لهم :

ـ دعوه ، فنحن نستطيع في أيِ وقتٍ أن نُلحقهُ بإخوانهِ ، أمَّا الآنَ فدعوهُ لي .

وبعدَ أن انتهى تاراس من حديثهِ ، اصطحبَ اليهوديَّ معه إلى حيثُ كانتِ العرباتُ ، وطلبَ من رجالهِ أن يحرسوهُ ولا يَدَعوه يُفْلِتُ من أيديهم . ثمَّ توجَّهَ إلى الساحةِ حيثُ كانَ القومُ قد عادوا إلى التجمُّع .

لمْ تعُدِ القضيةُ بالنسبةِ إلى الزابورجيّين قضيةَ استطلاعِ الشواطيء بزوارقهمْ بغيةَ صرفِ اهتمامهم ، بلْ أضحتْ الآنَ قضيةَ كرامةٍ تستوجبُ الأخذَ بثارِ إخوانهم الذين ذُبحوا ونُكِّلَ بهم . إنَّ المعركةَ التي بدأوا يُعِدُّون لها لم تعُدْ في حاجةٍ إلى الزوارق ، بل إلى الخيلِ والعرباتِ ، لأنها معركةٌ بريّةٌ . كما غدا

الجميعُ ، الكبيرُ منهم والصغيرُ ، يطالبُ بالاشتراكِ في معركةِ الثأرِ هذه .

عقدَ زعماءُ الزابوروجيّين وقادتُهم الاجتماعاتِ للبحثِ فيما يجبُ اتخاذُه من استعداداتٍ من أجلِ التحضيرِ للمعركةِ المقبلةِ . وبعدَ المداولةِ قرّروا أن يسيروا إلى بولندا مباشرةً ، ينشدون الانتقامَ لما حلَّ برفاقِهم من أذى وعار ، وليثبتوا للعالمِ أجمعَ أن شعبَ القوزاقِ لا زالَ ذلك الشعبَ البطلَ الذي عُرِف ببطولاته، والذي لا ينامُ على ضيمٍ أو يسكتُ عن الأذى .

وسرعانَ ما بدأ الجميعُ يعدّون العدّةَ ، فأخذوا يجهّزون سلاحَهم وعرباتِهم ، وخيلَهم ، ومؤنَهم ويتزوّدون بالذخيرةِ وكلِّ ما كانوا يحتاجونَ إليهِ في رحلتهم المقبلة . وكانَ على رأسِهم الرئيسُ كيرديا جا ، الذي لم يعُدْ ذلكَ الشيخَ المسنَّ ، الذي حاولَ مراوغةَ الزابوروجيّين قبلَ قليلٍ ، بلْ أصبحَ القائدَ القويَّ المطلقَ الذي لا يعرفُ غيرَ لغةِ إصدارِ الأوامرِ .

وعندما أصبحَ الجميعُ على أتمِّ الاستعدادِ ، وجّه الرئيسُ إليهم تعليماتِه وأوامرَه فقال :

ـ عليكم جميعاً أن تختبروا أسلحتَكم وتتأكّدوا من صلاحيّتِها . كما يجبُ أن يصطحبَ كلٌّ منكم جوادَين احتياطاً لكلِّ طارئ . وأمّا ما هو أهمُّ من ذلك كلِّه ، فهو أن تلتزموا بالنظامِ ، وتنفّذوا الأوامرَ التي تصدُرُ إليكم بكلِّ دقّة . وإنني أحذّركم جميعاً من تناولِ الشرابِ أثناءَ الطريقِ . وكلُّ من يخالفُ ذلك يعرّضُ نفسَهُ لأشدِّ العقابِ . أما من يخالفُ تنفيذَ الأوامرِ ، فسيكون جزاءُه الموتَ . هذا كلُّ ما أردتُ أن أقولَه لكم . والآن ، هيا أيها الأبطالُ إلى العملِ ، وليكنْ عملُكم كاملاً .

تفرّقَ الجميعُ وذهبَ كلُّ واحدٍ منهم للقيامِ بعمله . الآن بدأ العملُ الجدّيُّ لترتفعَ رايةُ القوزاقِ خفّاقةً عاليةً ، وانتهتْ حياةُ الخمولِ والكسلِ . لقد توقفَ الجميعُ عن تناولِ الشرابِ ، ولمْ يعُدْ يرى أحدٌ

من القوزاقِ يسيرُ في الشوارعِ مترنِّحاً من السُّكر .

وعندما خرجتْ قافلةُ الفرسانِ ، متوجهةً إلى الحربِ ، كانت أصواتُ هؤلاءِ الأبطالِ تملأُ الفضاءَ وهمْ يُنشدون الأناشيدَ الحماسيةَ الجميلة .

٤

حينَ بلغتْ أنباءُ زحفِ القوزاقِ على بولندا سكانَ جنوبِ غرب تلكَ البلادِ ، أصابهمْ الذعرُ وبادروا إلى الفرارِ ، وهم يحملون ما استطاعوا من أمتِعَتِهِمْ ، إلى أماكنَ أخرى في الداخلِ ، حيثُ يكونون بمنجاةٍ من انتقام القوزاقِ وبطشهم .

وواصلَ فرسانُ القوزاقِ زحفَهمْ . وكانت تحرّكاتُهم، أثناءَ هذا الزحفِ، إنما تَتِمُّ في الليلِ زيادةً في الحذَر . أمَّا في النهارِ ، فكانوا يبعثونَ ببعض دوريّاتِ الاستكشافِ لاستطلاعِ الطريقِ ومُراقبةِ تحرّكاتِ أعدائهم وتحديدِ مواقعهم .

أخذَ القوزاقُ يهاجمونَ القُرى البعيدةَ عن خطِّ سَيرهم، فيُشعلون النارَ في بيوتها ومتاجرها، ويَستولون على الماشيةِ أو يذبحونها، ثمَّ يغادرون القرى وقد خلَّفوا وراءَهم الخرابَ والدمار.

لمْ تكنْ حملةُ الزابورجيين حملةً عسكريةً، كما نعرفها الآنَ، بل مذابحَ دمويةً يعاني منها أناسٌ كثيرون. وكانتْ هذه المذابحُ شيئاً مألوفاً في ذلك العصرِ. وقد حدثَ أثناءَ حملةِ الزابورجيين هذه أن أوفدَ رئيسُ أحدِ الأديرةِ الكاثوليك، بعضَ قساوستهِ، ليطلبَ منهم وقفَ أعمالهم، وليبلِّغَهم أنها تتنافى مع حالةِ السلمِ القائمةِ بين بلدَيها. فما كانَ منهم إلاَّ أنْ ذهبوا إلى ذلكَ الديرِ وأحرقوه.

استمرَّ وصولُ جماهيرِ اللاجئين الذين كانوا يفرُّونَ من زحفِ جحافلِ القوزاقِ المتقدمةِ؛ حتى امتلأتْ بهم المدُن، وأصبحوا يشكِّلون عبئاً على حامياتها وسكانها على السواءِ. أما النَّجدات التي كانت تبعثُ بها الحكومةُ البولندية تباعاً لمقاتلةِ القوزاقِ وإيقافِ تقدُّمهم، فإنها

كثيراً ما كانت تفشلُ في تحديـدِ أماكنهم أو العثورِ عليهم، أو تَفِرُّ هاربةً من أمامهم بعد أنْ تفشلَ في الصّمودِ.

وقدْ لاحظَ بعضُ الضباطِ البولنديين ذلك، فقرَّروا تجميعَ قوّاتهم ومقاتلةَ الزابورجيّين. لكن هؤلاءِ لم يَفْسَحوا لهم المجالَ لذلك، بل أخذوا يهاجمونهم باستمرارٍ ويلاحقونهم أينما كانوا. فقضَوا على الكثيرين منهم واستولَوا على عددٍ كبيرٍ من جيادهمْ، وعلى الكثيرِ من سُيوفهم وبنادقهم.

كانَ تاراس بولبا، أثناءَ ذلك، يراقبُ ولَدَيهِ وهما يقاتلانِ الأعداءَ، فشعرَ بسرورٍ كبيرٍ وهو يرى الواحدَ منهما يتصدّرُ صفوفَ القوزاقِ ويخوضُ المعاركَ، كأفضلِ ما يكونُ المقاتلون، على الرغم من أنَّ هذهِ هي المرةُ الأولى التي يشتركُ في القتال فيها.

كانَ أوستاب على أتمِّ الهدوءِ والاتزانِ، وكانتْ جميعُ تصرُّفاته أثناءُ القتالِ تَتَّسِمُ بطابعِ الثقةِ بالنفسِ، وأعمالُه تُنبىءُ عن زَعامةٍ فِطريةٍ تكمنُ في

داخلِه . أمّا أندريا ، فقد استحوذَ صليلُ السيوفِ وطلقاتُ البنادقِ عليه ، فاندفعَ في القتــالِ لا يأبه لقوةِ خصمِه . كانَ يشعر بسرورٍ عظيمٍ وهو يرى كلَّ شيٍّ أمامه كالدوّامةِ ، فكانَ يضربُ هنا وهناك لا يهتمُّ بالرصاصِ الذي كانَ ينهمر من كلِّ جهةٍ .

وقال تاراس لنفسه ، وهو يراقبُ أولادَه :

ـ لقدْ كنتُ أشعرُ بذلك طوالَ الوقتِ ، فأبناءُ تاراس بولبا لم يكونوا جبنــاءَ ، بل أبطالاً شجعاناً . ستكونُ يا أوستاب قائداً عظيماً ، ربمــا أعظمَ من والدِكَ ، أمــا أنت يا أندريا ، فأنتَ شجاعٌ أيضاً ، ولكنّكَ لن تبلغَ مبلغَ أوستاب . ليحفظكُما اللهُ أنتما الاثنين .

قرّر القوزاقيّون مواصلةَ الزحفِ إلى مدينــةِ دوبينو واحتلالَهــا ، إذ كانوا يأملونَ الاستيلاءَ على الكنوزِ الكثيرةِ ، التي قيلَ إنها كانتْ مخبوءةً هناك . ولم يمضِ غــيرُ يومٍ ونصفٍ حتى وصلوا إلى أبوابِ المدينةِ التي كانت محاطةً بالأسوارِ العالية

وحينَ شعرَ سكانُ المدينــةِ وحاميتُها بقُدومِ جيشِ القوزاقِ ، قرّروا الدفــاعَ عن مدينتهم ومنعِ العَدُوِّ من اقتحامِها مهما كانتِ التّضحيات . وهكذا .. ما إن بدأ القوزاقُ هجومَهم حتى قُوبلوا بوابــلٍ من الرصاصِ أخذَ ينهمرُ عليهم من فوقِ أسوارِ المدينةِ ومن داخلها ، وتساقطت على رؤوسهم الأحجــار والبراميلُ والقارُ المغليُّ .. مما اضطرَّهم إلى التراجُعِ .

أخذَ زعمــاءُ القوزاقِ وضباطُهم يتباحثونَ في خطوتهم التالية ، فقرّروا محاصرةَ المدينةِ ومنعَ سكانها من الخروجِ حتى يموتوا جوعاً في داخلهــا . لذا نجدهم وزّعوا قوّاتهم في جميعِ الجهاتِ ، وأخذوا يُتلفونَ المناطقَ التي حولها ويحرقونَ القرى والمحاصيلَ الزراعية التي كانت جاهزةً للحصادِ . وكان الأهالي من داخــلِ مدينتهم المحاصرةِ يراقبون ما فعلهُ القوزاقُ ، ويشعرون بالفزَعِ لفقدانِ المحاصيلِ التي كانوا يعتمدون عليها في معيشتهم .

استمرَّ حصارُ المدينةِ لفترةٍ طويلةٍ دونَ أنْ يأتيَ

بالنتيجةِ التي كان يأملُها القوزاقُ، فأخذَ المللُ يتسرّبُ إلى نفوسِ الشبابِ منهم بفعلِ ذلك الانتظارِ الطويلِ. وفيما همْ على تلك الحالِ، لحقَ بهم فيلقُ تاراس بولبا بقيادةِ توفكاس مع عددٍ من الضباطِ، وقد انضمَّ إليهِ عددٌ كبيرٌ من الفرسانِ المتطوّعينَ، ممّا رفعَ عدد قواتِ القوزاقِ المحاربةِ إلى ما يزيدُ عن أربعةِ آلافِ رجلٍ.

وفي ذاتِ ليلةٍ كان أوستاب قد انتهى من القيامِ بالمهماتِ الموكولةِ إليه، وعادَ إلى فِرقتهِ. ولكنّهُ كانَ يشعرُ بقلقٍ لمْ يكنْ يدري ما سببُهُ. كان القمر يرسلُ أشعّتَهُ في تلكَ الليلةِ من ليالي يونيو، وكانَ القوزاقيون قد فرغوا من تناوُلِ طعامهمْ، فجلسَ بعضُهم يدخّنونَ، فيما انطرحَ البعضُ الآخرُ فوقَ الحشائشِ بين العرباتِ في أرضِ الميدانِ، وراحوا يَغطّونَ في النومِ، بعدَ أنْ وضعَ كلٌّ منهم سيفَهُ أو بندقيّتَه إلى جانبهِ.

سارَ أندريا حولَ العرباتِ، وكانتْ نيرانُ الحراسةِ

التي أوقدَها القوزاقُ تخبو تدريجيّاً. وقد دُهشَ عندما رأى الحرّاسَ وقد استسلموا للنوم بعدَ أن امتلأت بطونهم. وعجِبَ من هذا الإهمالِ الخطيرِ، فقالَ في نفسه:

ـ «منْ حُسنِ حظّنا أنْ الأعداءَ على غيرِ مقربةٍ منّا، وإلاّ لكانوا قد اغتنموا هذهِ الفرصة للانقضاضِ علينا».

تابع أندريا سَيْرَهُ إلى إحدى العرباتِ، فتسلّقها ثم استلقى على ظهرِهِ وحاولَ أن ينامَ، لكنّهُ عبثاً حاول ذلك. فوضعَ يديه تحت رأسهِ وأخذَ ينظرُ إلى السماءِ. وكانَ بينَ الوقتِ والآخرِ يغفو قليلاً، لكنّهُ سريعاً ما يعودُ إلى يقظتِهِ. وفيما هوَ كذلكَ، رأى شبح إنسانٍ يمرُّ من أمامِه، فعجبَ لذلك، واعتقدَ أن ما يراهُ لم يكنْ إلاّ حُلُماً.

أغمض أندريا عينيهِ ثم عادَ وفَتَحَها وأخذَ يحدّقُ أمامَهُ من جديدٍ. يا لَلعجب! إنَّ ما رآه لمْ يكنْ حلماً. يا ألله! منْ هيَ هذهِ المرأةُ المحجّبةُ التي تقترب

مني ؟ كيفَ وصلتْ إلى هنا ؟ ومن أينَ أتت ؟

وبحركةٍ لا شعوريةٍ تنـــاولَ أندريا بندقيته مِنْ جانبهِ احتياطاً لكلِّ طارىءٍ .

كانَ الشخصُ الذي رآهُ أنـدريا امرأةً ذاتَ شعرٍ أسودَ فاحمٍ ، يتدلّى أسفلَ قناعٍ أسودَ كانت تغطي بهِ رأسها . وكانَ وجهُها ذاوياً وجسمها ضعيفاً . واقتربت المرأةُ من أندريا ووضعتْ يدها على فمهِ وهي تناشدهُ أن يستمعَ إليها .

رفعَ أندريا يدَهـــا عن فمهِ وأخذَ يتفرَّسُ في صاحبتها . كانَ وجهها الداكنُ النحيلُ ، وعظامُ خدّيها البارزينِ ، وعيناها المقوَّستانِ تدلُّ على أنها لم تكنْ من أهالي المنطقةِ . وكان كلَّما دقَّقَ النظرَ في وجهها يزداد شعوراً بأن هذا الوجهَ ليسَ غريباً عنه . لقد رآه من قبلُ ، ولكن أين ؟ وأخيراً قالَ لها متسائلاً :

ـ من أنتِ ؟ يبدو لي أنني قد رأيتُ هـذا الوجـهَ من قبلُ ، لكنّـي لا أذكرُ متى وأين رأيتُـه . قولي لي : من أنتِ ؟

ـ ألم تعرفْني بعد ، أيها السيِّد؟ ألا تذكرُ «كيف» الفتاةَ التي دخلتَ بيتها في الحيِّ الأرستقراطيِّ هناك، منذُ عامينِ ؟

أخذ أندريا يستعيدُ في ذاكرتهُ مـا مرَّ بهِ عندمـا كانَ لا يزالُ طالباً في الجامعةِ ، وما لبثَ أن تذكَّـرَ تلكَ الحادثةَ وصرخ قائلاً :

ـ لا بد وأن تكوني الفتاةَ التتريةَ ، خادمةَ ابنـةِ الحاكمِ ، أليس كذلك ؟

ـ نعمْ أنا هيَ يا سيّـدي .

ـ ولكنْ ماذا تفعلينَ هنا الآن ؟

ـ لقد جئتُ برفقةِ سيـدتي، ولكنْ أرجوكَ أن تخفضَ صوتَك حتى لا ينتبهَ أحدٌ إلى وجودي هنا .

ـ أتقولين برفقةِ سيدتكِ ؟ أينَ هي ؟

ـ إنها في المدينةِ ، لقد عيـنَ والدُها حاكماً هنا منذُ سنةٍ ونصفٍ . وهي التي بعثتْ بي إليكَ بعد أن لمحَتْكَ بين جنودِ القوزاقِ .

ـ وماذا تريدُ سيدتكِ منّي ؟

ـ الحقيقةُ أنَّ سيدتي لم تذقْ طعاماً منذُ يومين .

ـ ماذا تقولين ؟ ألم يعدْ هناكَ طعامٌ في المدينةِ ؟

ـ كلا ، يا سيّدي ، إنَّ أحداً بالمدينة لم يتناولْ كِسرةً مِنَ الخبزِ منذ أيامٍ ، وقد أصبحوا يتضورون جوعاً . وكما قلتُ ، لقد بعثت بي سيدتي إليك لتتكرم عليها بقطعةِ خبزٍ تأكلُها والدتها العجوز ، فهي تعاني سَكراتِ الموتِ من الجوعِ . وهي تستحلفُك بكلِ شيءٍ عزيزٍ عليكَ أن تساعدَها .

دُهِشَ أندريا من هذا الحديثِ ، وأخذتِ الانفعالاتُ تتضاربُ في صدرهِ .

ماذا ! إبنةُ الحاكمِ ، تستعطفُه من أجلِ قطعةِ خبزٍ تسدُّ رَمَقَ والدتها بها !

يا ألله ! إنَّ هذا أمرٌ لا يصدَّقُ .

وبعدَ فترةٍ من الصمتِ عادَ ليسألَ الفتاةَ وقالَ :

ـ ولكنْ ، كيفَ تمكَّنْتِ من الوصولِ إلى هنا ؟



الفتى القوزاقيّ يقدّم الرغيف

- سوف أخبركَ عنْ ذلكَ ، ولكنّي أريدكَ أولاً أن تُقسِمَ لي بأن لا تفشيَ السرَّ لأحدٍ ، ولا تغدُرَ بي.

- أقسِم لكِ على ذلك . أجيبيني الآن .

وقالت الخادمة :

- أتيتُ عن طريقِ ممرٍ سريٍّ يصلُ داخلَ المدينةِ بخارجها ، ولا يعرفهُ إلا القليلُ منَ الناسِ .

وحملقَ فيها أندريا جيداً وهو يقول :

- وأين يبدأ هذا الممرُّ وأينَ ينتهي ؟

وأحسّت الخادمةُ في نفسِها بشعور غامضٍ ، ومع ذلك أجابت :

- إن مدخلَ هذا الممرِّ يقعُ داخل الديرِ ، وأما المخرج فهو أسفلَ ذلكَ الأخدودِ ، المغطى بأغصانِ الأشجار .

- لنذهبْ على الفورِ إذاً .

قال هذا ، وتحرَّك . لكن الفتاة اعترضتْ :

- ولكن ، هل تذهبُ يا سيّدي دون أن تأخذَ بعضَ الخبزِ معك ! أرجوك ، يا سيدي ، ألاّ تخيّبَ رجاءَ سيِّدتي، فهي تنتظرُ ذهابكَ إليها بفارغِ الصبرِ، لكي تطعمَ والدتَها العجوز . إنَّ قطعةً واحدةً تكفي .

* * *

تراءتْ أمامَ أندريا تلك الفتاةُ الجميلةُ الوجهِ والجسمِ ، بعد أن كانَ قد نَسِيَها ، وأخذَ قلبُه يدق بعنفٍ عندما فكَّرَ في أنه سيراها مرةً ثانية ، ولكنهُ اصطدمَ بفكرةِ احتمالِ موتها جوعاً . وما إن مرّتْ هذه الفكرةُ بخاطرهِ حتى التفتَ إلى الفتاةِ ، وطلبَ منها أن تنتظرهُ داخلَ إحدى العرباتِ حتى يعود .

أسرعَ أندريا نحو عربة المؤنِ ، فتناولَ عدداً من الأرغفةِ الكبيرةِ من الخبزِ الأسمرِ ووضعها تحت إبطه ، لكنهُ عادَ وفكّرَ : إنَّ مثلَ هذه الأرغفةِ قد يقبلها القوزاقي ولكنها لا تناسبُ مطلقاً من كانَ في مثلِ طبقتها . وتذكّر فجاةً أنَّ في عربةِ أبيهِ حقيبةً مملوءةً بالخبزِ الأبيضِ كانوا قد استولوا عليها من أحدِ

الأديرةِ . وقصدَ تواً إلى عربةِ أبيهِ ، لكنهُ لم يجدْ الحقيبةَ هناكَ ! لقد وضعها أخوه أوستاب تحتَ رأسه قبلَ أن ينامَ .

تقدّمَ أندريا بهدوءٍ من مرقدِ أخيه، فامسكَ بالحقيبةِ وَسحبها ببطءٍ من تحت رأسهِ . فصرخَ أوستاب باعلى صوتهِ لهذهِ المفاجأة ، ولكنهُ ما لبثَ أن عاد واستغرقَ في النومِ .

نظرَ أندريا حذراً حواليهِ ليتحقَّقَ منْ أنَّ أحداً لمْ يكنْ قد سمعَ صرخةَ أخيهِ ، ثم انتظرَ فترةً قصيرةً أخرى قبلَ أنْ انطلقَ بحِملهِ عائداً إلى الفتاةِ . وقال لها :

ـ هيا ، تقدّمي وساعديني على حملِ هذه الأرغفةِ ، فليسَ بوسعي حملُها جميعها . الكلُ ينامُ الآنَ ولا خوفَ علينا من افتضاحِ أمرِنا .

وبعد أن فرغَ من هذهِ الكلماتِ ، علّقَ الحقيبةَ على كتفهِ وانطلق برفقةِ الفتاةِ متوجهين نحو مدخلَ الممرِّ المؤدي إلى داخلِ المدينةِ .

ولقد حاولَ أندريا وهو في طريقهِ الابتعادَ عن الأمكنةِ التي كانَ الزابورجيون يرقدون فيها ، لكنهُ لسوءِ الحظِ ، ارتطمَ فجأةً ببعضِهم ، وإذ به يسمع صوتَ أبيهِ يناديه قائلاً :

ـ يا أندريا ، من هذهِ الفتاةُ التي بصُحبتكَ ؟ سوفَ أطلبُ منك أن توضحَ لي ذلك في الصباحِ . ألا تعلمُ أن النساءَ لا تجلبُ غيرَ الشرِّ ؟

وقفَ أندريا يرتجفُ من الخوفِ ، لا يجرؤُ على النظرِ إلى وجهِ أبيهِ . ولكنهُ لحسنِ الحظِ ، ما لبثَ أن رأى والدَهُ عادَ واستغرقَ في النومِ . ولمْ ينتظر أندريا أكثر من ذلكَ ، بل استدارَ نحو التتريةِ ، فامسكَ بيدِها وأسرعَ يبتعدُ عن المكانِ . وما لبثَ أن وصل مع رفيقتهِ إلى أخدودٍ عميقٍ كانت الحشائشُ تنمو في داخله بكثرةٍ .

وحينَ بلغا قاعَ الأخدودِ ، كانا قد ابتعدا عن معسكرِ الزابورجيين ، وعاد الاطمئنانُ إلى قلوبهم . عندها خلعت التتريةُ حذاءها ، ومشتْ عاريةَ القدمينِ

حتى وصلا إلى كومةٍ من الأغصان المقطوعةِ ، فأشارت إليهِ الفتاةُ وتعاونا على إزاحتها من مكانها . وما إن فعلا ذلكَ حتى بدت خلفها فتحةٌ متوسطةُ الحجمِ .

أحنتْ التتريةُ رأسَها وسبقتْ أندريا في الدخولِ ، وما لبثَ هو أن تبعها محنياً ظهرهُ ، وسُرعانَ ما وجدا أنفُسَهما في ظلمةٍ حالكة .

٥

تلمَّس أندريا طريقَه عبْرَ الممرّ الترابيّ المظلم ، يتْبَعُ الفتاةَ التتريةَ ، حاملاً حقيبة الخبز .

وقالت الفتاة :

ـ سنرى طريقنا بعد قليل . قريباً من هنا تركتُ مصباحي .

وما لبثا أن رأيا نوراً خافتاً وقد أضاءَ الجدرانَ الطِّينيَّة ، ثم وصلا إلى ساحةٍ صغيرةٍ مكشوفة . فوقفت الفتاةُ والتقطت مصباحاً تركتْهُ هناك أثناء خروجها، ثم تابعا سَيْرَهما في النَّفَق . وهنا أخذ الممرُّ

يتّسعُ أمامها ، وأصبح بوُسْعِ أندريا أن ينتصبَ في مِشْيَته . وكان يتطلّع بفضولٍ إلى الجدران ، فذكّرتْه بِسراديبِ كييف ، حيثُ كانت التوابيتُ بحذاءِ بعضها ، بينما تُرى في بعضها الآخر عِظامٌ بشريّةٌ تعفّنتْ من الرطوبة .

كانت بعضُ الأمكنةِ شديدةَ الرطوبة ، وكثيراً ما كانا يَشْعران بالماءِ تحت أقدامهما . وقد اضطُرَّ أندريا إلى التوقّف ليتيحَ لرفيقتهِ قِسطاً من الراحة . لأن الإعياءَ قد نالَ منها . وكانت تتعثَّرُ في كلِّ خُطوةٍ تخطوها ، مما اضطرَّها إلى أن تقفَ لبضعِ دقائقَ لكي تستردَّ أنفاسها اللاهثة . وأخيراً ظهر أمامهما بابٌ حديديٌّ صغير ، فقالت التتريّةُ بصوتٍ ضعيف :

« الحمدُ لله ! ها قد وصلنا » .

ثم رفعتْ يَدها ودقّت الباب . وبعد فترةٍ قصيرةٍ من الانتظار ، سمعا أحدَ الأشخاصِ يهبطُ بعضَ الدرجات في الداخل ، ثم انفتحَ البابُ وتقدّمَ أحدُ الكهنةِ لاستقبالِهما ، وهو يحملُ شمعةً بيدِه .

تراجعَ أندريا رغماً عنه عند رؤيةِ الكاهن، كما ارتدّ الراهبُ بدوْرِه إلى الوراء حينما شاهد قوزاقيّاً أمامه . لكنّ الفتاةَ همستْ في أذنه ببعضِ كلماتٍ أعادت الطمأنينةَ إلى قلبه . فأضاءَ لهما الدرجَ وأقفلَ الباب ، ثم سارَ أمامَهما حتّى أصبحا تحت أقواسِ كنيسةِ الدّير المعتمة .

أخذ أندريا من رُكنه المعتم يتفرّس بدَهشة ، وهو مأخوذٌ بما يراه في الكنيسةِ من الزخارفِ والصّوَر المعلّقةِ على الجدران . وقد دُهشَ عندما سمعَ صوتَ الموسيقى الجميلة ، التي كانت تصدُرُ عن الأُرغُن ، فكانت أحياناً تبدو مثلَ هديرِ الرعد ، ثم تتحولُ إلى نغماتٍ هادئةٍ ناعمة . وفيما كان الفتى غارقاً في دَهشتِه ، إذ بالفتاةِ تمسكُ بيدِه ، وتقول :

ـ هيّا ، لقد حانَ وقتُ ذهابنا .

سارا عَبْرَ الكنيسةِ دونَ أن يَلْحظَهما أحد ، وخرَجا إلى الساحةِ الخارجيّة . وكان نورُ الصباحِ قد بدأ يُلقي بظلّه على المدينةِ . كانت الساحةُ خاليةً إلا

من بعضِ الأكشاكِ الخشبيّة ، مما يدلّ على أن تلك الساحةَ كانت تُستعمَلُ كسوقٍ للخضارِ أو المؤن. وكان الشارع غيرَ معبّد ، ككلّ الشوارعِ الأخرى في ذلك الزمن. أما الساحةُ فقد كانت محاطةً ببيوتٍ صغيرةٍ ذاتِ طابقٍ واحد ، كان طرازُها شائعاً في ذلك العصرِ في أنحاءَ معيّنة من لِتوانيا وبولونيا .

بدت الساحةُ خاليةً تماماً من الناس . غيرَ أن أندريا ظنّ أنه سمِعَ أنيناً خافتاً ، ونظر حواليه يحاولُ تحديدَ مصدرِ الصوت . وفيما هو كذلك لمَحَ في الجهةِ المقابلةِ شخصين أو ثلاثةً مضطجعين على الأرضِ لا حَراكَ بهم . فحدّقَ ليرى ما إذا كانوا نياماً أو موتى ، وفي نفسِ تلكَ اللحظةِ تعثّر بشيءٍ كان مستلقياً على الطريقِ عند قدميه . وكانت تلك جثّةَ امرأةٍ شابة ، قد لفّت رأسَها بمنديلٍ أحمر ، وإلى جانبها كان يستلقي طفلٌ بدا وكأنه يعالجُ سكراتِ الموت .

أفزعتْ أندريا هذه الضريبةُ الفادحة التي يدفعُها أهلُ المدينة ، وقدّرَ أن الكثيرين لم يتحمّلوها ، وها هم

الآنَ يحتضِنون الأرضَ وقد فارقَتهم الحياة . وفيما كان أندريا ورفيقتُه يتحوّلان إلى أحدِ الشوارع ، أوقفَهما رجلٌ بدا عليه أنه قد جُنّ ، ثم وثبَ على أندريا وهو يحاولُ أن يُنشبَ أظافرَه في عنقه . ولكن أندريا دفعهُ دفعةً قويةً رَمَتْه أرضاً . فأخذ الرجلُ يتلوّى من شدّةِ الألم .

نظر أندريا إلى المجنونِ نظرةَ إشفاقٍ وعطف ، فالقى إليه برغيف . فالتقطهُ الرجلُ ، وأخذَ يمزّقُهُ بيديه ويلتهمهُ وكأنه حيوانٌ جائع . لم يكن المسكينُ قد ذاقَ طعاماً منذُ مدةٍ طويلة ، ولم يُطِقْ آلامَ الجوع ، وسرعانَ ما قضى نَحْبَهُ وهو يرتجفُ في تلك البقعةِ من الشارع .

هنا كان شَبَحُ المجاعةِ يُطالع أندريا أينما سار ، وإزاءَ هذه المشاهدِ المؤلمة ، سأل أندريا رفيقتَهُ قائلاً :

— ألم يكنْ في قُدرتهم حقاً العثورُ على أيّ شيءٍ يسدّون به رمقَهم ، بعد أن نَفَدَت جميعُ المؤنِ من المدينة ؟

- لقد أكلوا كلَّ شيءٍ استطاعوا أكْله . لم يكونوا يخزِنون المؤنَ في المدينـــة ، بل كانوا يَجلِبـونها من القُرى المجاوِرة . ومنـذ أن فَرَضَ القوزاقُ علينـا الحصارَ لم يعدْ بوُسْعِنا إحضارُ شيء .

- وعلى هذه الحالةِ من الجوعِ ، كيف يمكنهم أن يظلّوا متمسكّينَ بمدينتهم ؟

- كاد الحاكمُ أن يستسلمَ ، ولكنّ القائدَ العسكريَّ الموجودَ في « بودزاك » أرسلَ صقراً إلى المدينـة صباحَ أمسِ مع ورقةٍ يقولُ فيهـا إنه قادمٌ على رأس قوّاتٍ كبيرةٍ لفكّ الحصارِ عن المدينة والقضاءِ على القوزاق .. والمدينةُ الآنَ تنتظر قُدُومَهُ بين فترةٍ وأخرى ... ها نحنُ قد وَصَلْنا إلى المنزلِ أخيراً .

لاحظَ أندريا بيتاً لا يُشبهُ البيوتَ الأخرى . فقد كان مؤلّفاً من طابقَين ونوافذُه مصنوعةٌ من الخشب ، ومزخرفةٌ بشكلٍ جميل . كما كان هناك حارسان يَقفانِ عند أسفلِ الدرَجِ ومع كلٍّ منهما رمحٌ طويل . ولم

يبدُ عليهما أيُّ اهتمامٍ عندما دخل أندريا ورفيقَتُـه إلى المنزل .

كانت أولُ حُجرةٍ الآنَ زاخرةً بالجنودِ والضبّاط ، فهي تُستخدم الآنَ كغرفـةٍ للاستقبال . وكان هناكَ شمعتانِ تُضيئان . فتقدّمَ أندريا نحو بابٍ عريض . ولكن التتريّةَ جذبتْهُ من كُمِّهِ وأشارت نحو بابٍ صغيرٍ إلى جانبِ الجـدار ، فمرّا من خلاله ، ليجدَ أندريا نفسَه داخِـلَ ممرٍّ أدى بهما إلى حجرةٍ أخرى ، كان النورُ ينسابُ من خلالِ نوافذِها . وهنا أشارت الفتـاةُ إلى أندريا أن ينتظرَ ، ثم فتحت باباً يؤدّي إلى حجرةٍ ثالثة ، سمع أندريا فيها همساً وصوتاً ناعماً جعلَـه يرتعشُ في داخِله .

عادت التتريّةُ بعد لحظةٍ وأومأت إليه أن يدخل . ولم يشعرْ أندريا كيف وصلَ إلى داخلِ الغرفة، ولكنّه ما إن وجدَ نفسه هناك ، حتى أخذَ يدورُ بنظرِه في أرجاءِ الغرفة . كانت في الحجرةِ شمعتـان تشتعلان ، وطاولةٌ مستطيلةُ الشكل ، ولكـنَّ عينَيْـه لم تكونا

ترَيانِ هذهِ الأشياءَ بل كانتا مركّزَتين على الفتاةِ التي كانت هناك ، وقد بدا له أنها قد تحوّلتْ إلى صخرٍ أو جماد .

وقف أندريا أمامها **ذاهلاً** . لم تكن الفتاةُ التي وقفتْ أمامه الآن هي نفسَ تلكِ الفتاةِ التّي كان قد عرَفَها في السابق . لقد كانت أكثرَ نُضجاً ، إنها في رَيْعانِ الجمال . وعيناها المرتَفعتان تُظهران أنها قد أصبحتْ ذاتَ إحساسٍ ناضج . ولم تكن الدموعُ قد جفّتْ بعدُ من عينيها .

نعم، لقد استولى الذهولُ على أندريا ، فوقفَ أمامها مسحوراً منعقدَ اللّسان . أما هي ، فقد بدا وكأنها قد فوجئت بقُدومِ هذا القوزاقيّ ، الذي يقفُ أمامها مكتملَ الشباب ، تبدو عليه القُوّةُ والجمال . أما كان شارباهُ الأسودان أملسَين كالحرير !! وعندما تمالكتْ الفتاةُ نفْسَها ، قالت له بصوتٍ متهدّج :

– إنني أشكرُك من صميم فؤادي ، أيُّها الفارسُ

النبيل ، واللهُ وحدَه هو القادرُ على مكافأتِك ، وليس أنا ، المرأةَ الضعيفة .

وخذلت الكلماتُ أندريا ، ولم يَدْرِ ماذا يقول . وفي تلك اللحظةِ دخلت التتريّةُ إلى الحجرة . وكانت قد قَسّمت الخبزَ الّذي أحضرَه أندريا ، ووضعتْهُ في طبقٍ ذهبيّ ووضعتْه أمامَ سيّدتها .

وتطلّعت الفتاةُ إلى الخبز ، ثم رفعت عينَيها إلى أندريا . ونظرتْ إليه بنظراتٍ تُنبىءُ عن معاناتِها وعدمِ قدرتِها عن التعبيرِ عن عواطِفِها. ثم التفتتْ إلى الفتاةِ التتريةِ بغْتَةً وسألتها بقلق :

– هل أخذتِ بعضَها إلى أمي ؟

– لقد وجدتُها نائمة .

– وأبي ؟

– نعم ، وقد قال إنه سوف يحضُرُ بنفسه لتقديمِ الشكرِ إلى هذا السيّد .

تناولت الفتاةُ قطعةً من الخبز ووضعتْها في فمها ،

فيما كان أندريا يراقبُها وقد شعر بسرورٍ كبير. وفجأةً عادتْ إلى ذاكرتِه صورةُ ذلك المجنونِ الّذي قضى نَحْبَه أمامَ عينيه في الشارعِ بعدَ أن تناوَلَ الخبزَ الذي كان قدّمه هو له، فأسرعَ وأمسكَ بيدِها وقال:

ـ هذه القطعةُ تكفي الآن، وإلا أصابكِ ضررٌ كبير. لقد مضى عليكِ فترةٌ طويلةٌ دون أن تأكلي شيئاً. لذا يجبُ عليكِ أن تتناوَليه شيئاً فشيئاً، حتى لا تتضرَّري وتُصابي بسوءٍ كبير.

واستجابتِ الفتاةُ لرغبةِ أندريا وأنزلتْ يدَها على الفور، ثم أخذتْ تنظرُ إليه بنظراتٍ مِلْؤُها الحبّ، وما لبِثتْ أن أخذت الدموعُ تنهمِرُ من عينيها بغزارة.

جُنَّ جنونُ أندريا عندما رآها على هذهِ الحالِ ولم يعدْ يتمالكْ نفسه، فصاحَ قائلاً بصوتٍ يَنِمُّ عن مدى حُبِّهِ لهذهِ الفتاة:

ـ يا حبيبتي، لا تبكي، بل مُريني بما تُريدين،

وأنا طوعُ أمرِك. فما عليكِ إلا أن تُصْدِري لي أوامرَكِ، حتى أقومَ بتنفيذِها على الفورِ ولو كلّفني ذلك حياتي. فالموتُ من أجلكِ هو جُلُّ ما أتمنّاه.

أخذت الفتاةُ تنظرُ مندهشةً إليه. وقد ذُهلتْ من العاطفةِ المتّقدةِ التي كَشَفَتْ كلماتُهُ عنها. لقد كانت تَنْبَثِقُ من أعماقِ قلبِه، وتكشِفُ عن طِيبتِهِ وسُمُوِّ خُلقه. فدفعت وجْهَها إليه، وحدّقتْ فيه طويلاً، وكادت أن تتكلّم. ولكنّها توقّفتْ عن ذلك فجأةً عندما تذكّرتْ أنّ هذا الشابَّ الواقفَ أمامها الآنَ هو زابورجي، عدوٌّ لبلدِها. فعادت إلى البُكاء مرّةً أخرى وهي تشعرُ بتعاستِها.

ظلّتِ الفتاةُ تجلسُ صامتةً والدموعُ تنهمرُ من عينَيها لفترةٍ طويلةٍ إلى أن قَطَعَ أندريا حَبْلَ الصمتِ، وقال لها:

ـ ألا تحدّثينني، ولو بكلمةٍ واحدة؟ أخبريني: لماذا أنتِ حزينةٌ هكذا؟

ثم أمسكَ بيدِها الناعمةِ بين يديه.

— وبماذا تريدُني أن أُحدِّثُكَ ؟ هل أحدِّثُكَ عن حُزني وتعاستي، أم أحدِّثُكَ عن أولئك الّذين وضعوا ثرواتِهم وألقابَهم تحتَ قدميّ ، وقد بلغ حُبُّهم لي كلَّ مبلغ ! هل أقولُ لك بانني رفضْتُهم جميعاً ، لأني كنت أحبُّ شاباً غريباً ، لا بل عدوّاً يسعى إلى القضاءِ على بَلَدي !!

توقّفت الفتاةُ عن الحديثِ للحظةٍ ثم واصلتْهُ قائلة :

— آهِ ، ياربّي ! ماذا جنيتُ حتى تُعاقِبَني بمثلِ هذا العقاب ! لقد كانت أيامي هانئةً سعيدة ، إلى أنْ التقيتُك. ثم بتُّ لا أرى غيرَ وجهِك أمامي. يا لحظّيَ التعِس ! ألا يكفي أن أُبْصِرَ والدي ووالدتي، اللّذين أتمنّى أن أَهَبَهما حياتي ، يقاسيانِ عَناءَ الجوعِ والحرمانِ بعد أن عاشا في رغدٍ وبحبوحة !!

لاذت الفتاةُ بالصمتِ وقد بدا على وجهِها القُنوطُ واليأسُ بأجلى معانيها ، فيما كانت دموعُها لا تزالُ تنهمِرُ من عينَيها .

وفي تلك اللحظة ، سُمعت صرخاتٌ من الشارع ، مختلطةً بأصواتِ الأبواقِ والطبول ، ثم دخلت التتريّةُ وهي تَصْرُخُ من الفرح :

— لقد دخل جندُنا المدينة ، لقد نجَوْنا ! لقد نَجَوْنا ! لقد أحضروا معهم القمحَ والذُّرَة .. والكثير من الزابورجيّين الأسرى .

شَعَرَ أندريا في تلكَ اللحظةِ أنه قد انفصلَ نهائيّاً عن وطنِهِ وعائلتِه وبني قومِه ، ولن يرى زابورجيّاً بعدَ الآن .

٦

عمَّ الاضطرابُ المعسكرَ الزابورجيَّ ، ولم يفهمْ أحدٌ منهم في البَدْءِ كيف تمكَّنَ جنودُ العدوِّ من دخولِ المدينة ، ولكنَّهم ما لبثوا أن عرَفوا أن ثُكنةَ يبريسلاف التي كانت تُعسكرُ إلى جانبِ أبوابِ المدينة، قد أفرَطَ جنودُها في تناوُلِ الشرابِ حتى لم يعودوا يَشْعُرون بشيء. ففاجاهم جنودُ الأعداءِ وقتَلوا عدداً كبيراً منهم وأسَروا الباقين ، قبلَ أن يُدْرِكوا ما حدَثَ لهم .

دعا رئيسُ الزابورجيين إلى عقدِ اجتماعٍ عاجلٍ

للبحثِ في هذهِ الكارثةِ التي ألَمَّتْ بهم . وعندما وقفَ الجميعُ وهم يلُوذون بالصمتِ ، وجّهَ الرئيسُ حديثَه إليهم وقال :

« الكلُّ منكُم علِمَ ما حدَثَ هذه الليلة، وتعلمون أن ما حلَّ بنا ، كان نتيجةَ السُّكْرِ والإهمال . لقد ألحقَ بنا العدوُّ العارَ .. ولقد حذَّرتُكم من قبلُ ، ونَهَيْتُكم عن معاقرةِ الخمرةِ أثناءَ حمْلَتِنا هذهِ ، ولكنْ ، للأسفِ ، لم يتقيّدْ أحدُكم بهذا الأمر ، ممّا أدّى إلى هذهِ النتيجةِ المؤلمة ... »

وقفَ القوزاقُ يستمعونَ إلى ما كانَ يقولُه رئيسُهم، ورؤوسُهم مطأطِئة، شاعرين بالذَّنْب. ولكن كوكوبنكو ، قائدُ ثُكنةِ نيزاماي تقدّمَ من الرئيس وقال له :

ـ اعذُرْني يا سيّدي ، إذا ما ردَدْتُ عليك أمام الجيش . أنا أعلمُ أن عملي هذا مخالفٌ للقانون . لقد كان القوزاقُ يستحقّون أقسى العِقاب لو أنهم كانوا قد سَكِروا أثناءَ المعارك . ولكنَّهم كانوا يرْكَنُون

إلى الخمُولِ في محاصَرتِهم للمدينة . فكيفَ يستطيعون إذاً البقاءَ بعيدِين عن شُربِ الخمرةِ وهم على مثلِ هذهِ الحال ! لقد تغلَّبْنا على هؤلاءِ الأعداءِ من قبلُ ، ولسوفَ تتغلَّبُ عليهم الآن . وسوف نُثبتُ لهم أنّ عمَلَهم هذا لن يَمُرَّ دون عِقاب .

كان تاراس بولبا ، عندئذٍ ، يقفُ في مكان غيرِ بعيدٍ عن الرئيس ، وما إن انتهى كوكوبنكو من حديثِه ، حتى قال :

ـ ما هي خُطوتُنا التاليةُ أيُّها الرئيس ؟ لقد قالَ كوكوبنكو الحقيقةَ .. ماذا تقولُ في ذلك ؟

ـ أقولُ إننا بحاجةٍ إلى الكثيرين من أمثالِ كوكو هذا بِعُقولهم النيِّرة . لقد سبقَني في قولِ ما كنتُ أودُّ قولَه . ولكنْ ، إسمعوا الآن ! إن الاستيلاءَ على الحصونِ وتسلُّقَ الأسوارِ ليس عملاً خليقاً بالزابورجيين . وكلُّكُم تعلَمون أن المدينةَ تعاني من الجوعِ منذ أمدٍ غيرِ قصير . وما كان قد أحضره جنودُ من المؤنِ لن يكفيَ هذهِ المدينةَ الجائعةَ أكثرَ

من بضعةِ أيام . لذلك ، لا بُدَّ أن يحاولوا الخروجَ من المدينة ، لسببٍ أو لآخر . وهكذا عليكم أن تَنْقَسِموا إلى ثلاثةِ أقسامٍ وتُغلقوا الطرقَ الثلاثَ أمامَ الأبواب. لتأخذْ خمسَ فِرقٍ منكم أماكنَها أمامَ البابِ الرئيسي، وثلاثُ فِرقٍ أمامَ كلٍّ من المدخلَين الآخرين. أما فرقتا ديادكيف وكورسون فَستَكمُنان للعدوِّ بالاشتراكِ مع تاراس بولبا وفرقتِه . وتبقى فرقتا تيتاريفكا وتيموشيفكا كقوّاتِ احتياط . والآن، إلى العملِ أيُّها الأبطالُ ، وسوف نرى من المنتصِر .

أحنى الجميعُ رؤوسهم ، ثم انطلقوا إلى عرباتهم وشرعوا جميعاً يستعدُّون لمعركتِهم المقبلةِ مع العدو .
أما تاراس بولبا ، الذي كان قد افتقدَ أندريا ، فقد أخذَ يتساءل عما حلَّ به ، هل أُسِرَ أو قُتِل ؟

ولكن لا ، هذا غيرُ ممكن ، فاندريا لم يكن الرجل الّذي يقبلُ أن يؤخَذَ أسيراً وهو حي .

ولكن ، أين هو الآن ، يا ترى ؟

كان تاراس تائهاً في تفكيرِه وهو يسيرُ في مُقدّمة

فِرقتِه . وفجأةً ، أفاقَ من تأملاتِهِ على صوتٍ كان يناديه ، فقال وهو يلتفتُ نحو مَصْدَرِ الصوت :

ـ من الذي يناديني ؟

ـ أنا ، يا سيّدي! أنا يانكل .

ـ يا لَلشيطان ، وماذا تفعلُ هنا ؟

ـ لقد حضرتُ لتوّي من المدينة ، يا سيّدي .

حملق تاراس ، وهو يَعجبُ كيف تمكّنَ هذا اليهوديُّ القذِرُ من الدخولِ إلى المدينةِ والخروجِ منها دونَ أن يعترضَه أحد . ثم قال له :

ـ وماذا كنتَ تفعلُ هناك ؟

ـ سوف أُخبرُك على الفور ، يا سيّدي . حالما سمعتُ الضوضاءَ وإطلاقَ النارَ في الفجْر ، أسرعتُ نحو أقربِ أبوابِ المدينة لكي أستطلعَ الخبر ، في نفسِ اللحظةِ التي كان فيها جندُ البولنديين يدخلون المدينة. ورأيتُ على رأسِهم أحدَ الأسيادِ الذي سبَقَ لي معرفته، والّذي كان قد استدانَ منّي بعضَ المال . وهكذا

أخذتُ أجري خلْفَه لكي أُطالِبَه بالدَّين ، وما لبثتُ أن وجدتُ نفسي داخلَ المدينة .

فصاح تاراس وهو ينفجرُ من الغيظ :

ـ ولكنْ ما علاقتي أنا بكلِّ ذلك ، أيُّها اليهوديُّ الملعون ؟

ـ رويدَك ، يا سيّدي ، وسوفَ أصلُ إلى ذلك حالاً . إصبِرْ قليلاً .

ـ هيا ، أكملْ حديثَك ، وبسرعة .

ـ لقد أخبرتُك ، يا سيّدي ، أنني تمكّنتُ من دخولِ المدينة ، وفيما كنتُ أسيرُ في أحدِ الشوارعِ هناك، أبصرتُ سيّدي أندريا ، وكان يسيرُ هناك وكأنه أحدُ الأسيادِ العِظام . حتى إنني بالكاد تمكّنتُ من معرفتِه .

فصرخ تاراس بولبا :

ـ ماذا تقولُ : رأيتَ إبني أندريا هناك ؟

ـ نعم ، يا سيّدي ، وقد علمتُ أنه مضى إليهم

بمحضِ إرادتِه ، وهو يعملُ إلى جانبهم الآن .

ـ إنكَ لَكاذبٌ أيها اليهوديُّ القذر !

ـ ولماذا أكذبُ ، يا سيّدي ، وأنا أعلمُ أن ذلك يمكنُ أن يكلّفَني حياتي .

ـ إذاً ، إن ما تقولُه لا يعني إلا شيئاً واحداً .. لقد باعَ أندريا وَطنَه للأعداء .

ـ كلاّ ، يا سيّدي . إنه لم يَبِعْ شيئاً لأحد . لقد ذهبَ إلى هناك من أجلِ إبنةِ الحاكمِ الجميلة . لقد تخلّى عن كلِّ شيءٍ من أجْلِها .

تذكّر تاراس بولبا الآنَ أنه كان رأى أندريا وهو يسيرُ في المعسكرِ برفقةِ امرأة ، ومع ذلكَ فقد بَقِيَ غيرَ مصدّقٍ أن ابنَه قد خانَ أمّتَه ووطَنَه وباعَ نفسه للأعداء، وهل هناك أقسى من خِيانةِ الوطن !

أحنى تاراس بولبا رأسَه ، وقد شعرَ بالعارِ من جرّاءِ عملِ ابنه،وواصلَ سيرَه في صمتٍ ،يقود فِرقته إلى المكان الذي كان قد حدّده لها ، فيما كانت فِرَقُ

الزابورجيّين الأخرى تتقدّمُ نحو الطرقاتِ الثلاثِ المؤدّيةِ إلى الأبوابِ الثلاثة .

كان الزابورجيّون يسمعونَ تحرّكاتِ العدوِّ داخلَ المدينةِ ، عندما اتّخذوا مراكزَهم على مَقْرُبةٍ من الأبواب . ثم رأوا الجنودَ وقد أخذوا يتجمهرون فوق أسوارِها ، وخوذُهم الفولاذيةُ تلمعُ تحتَ أشعّةِ الشمس ،وقد وَقَفَ في مقدّمتهم قائد مدينةِ بودزاك وهو يعتمر قُبعةً حمراءَ ذاتَ شريطٍ ذهبيّ . كان رجلاً صارماً ، طويلَ القامةِ تبدو عليه القوّة .

وقفتْ صفوفُ القوزاق أمامَ الأسوارِ بهدوءٍ ، بملابسِهم البسيطةِ وقبّعاتِهم ذاتِ التيجانِ الحمراءِ المصنوعةِ من جِلْدِ الشاة الأسود . وما لبث أن خرج اثنان من الفُرسانِ من بين صفوفهم وهما يمتطيان جواديْهما . كان أحدُهما شاباً ، والآخر أكبرُ منه ، ثم تَبِعهما فارسٌ آخر ، فتقدّما من الأسوارِ وأخذا يهزءآن من الجنودِ البولنديين .

وأثارتْ هذه السُخرية غضبَ قائدِ البولنديين ، فأخذ يتوعدهم قائلاً :

ـ سوف أريكم أيها الجبناء عاقبة عملكم هذا. ألم تروا ما حدث لرفاقكم، وكيف اقتدناهم مقيدين بالسلاسل! انظروا إلى إخوتكم، علكم تثوبون إلى رشدكم.

ثم التفت إلى بعض الجنود، وطلب منهم إحضار الأسرى الزابوروجيين إلى الأسوار.

وجلب الزابوروجيون المقيدون بالسلاسل، وكان من ضمنهم قائدهم. وقد بدا عارياً تماماً بعد أن جرده البولنديون منها، فاحنى رأسه خجلاً أمام إخوانه من الزابوروجيين، لأنه كان قد أسر أثناء نومه.

وصاح القوزاق من تحت:

ـ تشجع يا فيليب! سيدفعون ثمن جريمتهم هذه عما قريب. ليس خطاك في كونهم أخذوك عارياً، ولكن كان عليهم أن يخجلوا من أنفسهم لعرضك هكذا دون أن يعطوك لباساً محتشماً.

ولكنهم ما كادوا ينتهون من كلماتهم هذه، حتى انهمرت عليهم الطلقات من كل جانب.

تراجع القوزاقيون إلى الخلف، وما لبثوا أن رأوا أبواب المدينة تفتح ثم يندفع منها الجنود البولنديون وعلى رأسهم قائدهم شاهراً سيفه. فصرخ رئيس القوزاق بجنوده قائلاً:

ـ لا تدعوهم ينظمون أنفسهم! اهجموا عليهم.. اخترقوا صفوفهم وشتتوهم.

اندفع القوزاقيون من كل جانب، وأوقعوا الاضطراب بين صفوف البولنديين، ولم يمنحوا العدو وقتاً لإطلاق النار، فيما تشابكت الرماح والسيوف من كلا الفئتين.

حمي وطيس القتال بين الفريقين وسنحت الفرصة لكل رجل من القوزاق أن يبرهن على شجاعته. ها هو ديميد بوبوفيتش يطعن ثلاثة رجال مدججين بالسلاح، ثم يستولي على جيادهم. وها كوبيتا، وهو قوزاقي شاب، يتعارك مع أحد المحاربين البولونيين ثم يطعنه بخنجره فيرديه قتيلاً، ولكنه يصاب برصاصة في رأسه كان قد وجهها إليه أحد النبلاء البولونيين، ويخر قتيلاً.

وشعر البولونيون أن المعركة لم تكن تشير في صالحهم ، فأخذوا يتراجعون عبر الميدان بقصد إعادة تنظيم قواتهم مرة أخرى. فأصدر قائدهم أوامره إلى قوات الاحتياط ، التي لم تكن قد اشتركت في المعركة، بل بقيت تنتظر ، وهي على أهبة الاستعداد عند أبواب المدينة . ففتحت نيران بنادقها على القوزاقيين، ولكن تأثير طلقاتهم لم يكن فعالاً باستثناء إصابة بعض الخيول والثيران .

إندفعت الثيران التي كانت قد أصيبت نحو معسكر القوزاق مذعورة وأخذت تحطم كل ما كان في طريقها . ولكن تاراس بولبا الذي كان قد اندفع مع قواته في تلك اللحظة ، تصدى لتلك الثيران ، وأجبرها على التراجع. فاستدار هذا القطيع المجنون وانقض على فرق البولونيين وشتتهم جميعاً .

وما إن رأى الزابوجيون ذلك حتى هاجموا العدو بقوة ، وقضوا على عدد كبير من جنوده. وحينما رأى البولونيون ذلك ، أخذوا ينادون رجالهم لكي يفتحوا

لهم الأبواب . وما إن تم ذلك حتى أسرعوا إلى الداخل وهم في حالة شديدة من الإنهاك .

كان كوكو بنكو ، قائد قوات أومان قد قتل اثناء المعركة ، فقرر هؤلاء تعيين أوستاب بولبا قائداً لهم تقديراً لشجاعته وحكمته. وعندما أبلغ أوستاب خبر تعيينه ، شكر رفاقه القوزاق على الثقة التي منحوه إياها، ثم قادهم في الحال للاشتراك في المعركة، حيث أثبت أنه خليق بالمهمة التي انتخبوه من أجلها.

كان القوزاق على وشك الانسحاب إلى معسكرهم عندما عاد البولونيون إلى الظهور ثانية فوق الأسوار، فناداهم القوازقيون ساخرين :

– لماذا لم تقيدونا ، أيها الأبطال ؟

فرد عليهم البولونيون بوابل من طلقات بنادقهم، ثم أخذ قائدهم يردد تهديداته السابقة ، وقد أخذ هذه المرة يلوح بحبل كان يحمله في يده . وأخيراً انسحب الجميع ، بعد أن كان قد أنهكهم القتال .

فأخذَ الزابورجيّون يجمعون قتلاهم ويحفرُون لهم القبورَ بسيوفهم العريضةِ وحرابهم ، لكي يدفنوهم بها. أما جُثَثُ البولونيّين فقد رُبطت إلى أذيالِ الجياد ، حيث راحت تعدو بها على التلال .

وبعد أن انتهى القوزاقيّون من عَمَلِهم ، جلسوا يتناولون طعامَ العشاء ، وهم يستعيدون حوادثَ ذلك اليوم. أما تاراس بولبا فقد جلس يفكرُ بغيابِ ابنهِ أندريا ، وعاهد نفسَه على الانتقامِ من تلك المرأةِ البولونيّة التي سحرت ابنه ، ولكن بولبا لم يكن يعلَم ما قد أعدّه الغدُ له . ولم يلبثْ أن غلبه النعاسُ وراحَ يَغُطُّ في نومٍ عميق . أما القوزاقُ الآخرون فقد ظلّوا يتبادلون الأحاديثَ ، فيما كان الحرّاسُ يقومون بخفاراتهم بعيونٍ يَقِظَةٍ ساهرة.



أندريا والفتاة

٧

بعد طُلوعِ فجرِ اليومِ التالي بقليل ، دُعيَ الزابورجيّون جميعاً إلى إجتماع طارىء . وما إن لبّوا هذه الدعوةَ حتى أُبلغوا أن رسالةً قد وردت من مدينةِ زابورجي تُفيدُ أن التتريّين قد هاجموا المدينةَ مستغلّين غيابَ القوزاقِ عنها ، فاستولَوا على كنوزهم الدفينةِ ، وقتلوا أو أسَروا كلَّ أولئك الذين كانوا هناك . ثم انطلقوا بكافّةِ قُطعانِ الماشية ، والجيادِ إلى بيريكوب. وقد تمكّنَ ماكسيم غولودوخا ، من الإفلاتِ والهرب ، فسارَ بجوادِه مدّةَ يومٍ ونصفٍ إلى أن

وَصلَ إلى مخيّم الزابورجيّين على مَقْرُبةٍ من مدينة دوبنو .

كانت العادةُ في مثلِ تلك الأحوال ، أن ينطلقَ القوزاقُ لِمُطاردةِ المُغيرين على الفَوْر ومحاوَلَةِ اللّحاقِ بهم قبلَ أن يصلوا إلى وِجْهتِهم ، وذلك بُغيةَ استردادِ الأسرى قبلَ إرسالهم إلى أسواقِ الرّقيق في آسيا الصُّغرى أو جزيرةِ كريت . هذا هو السبب الذي جعلَهم يتداعَوْن لعَقْدِ اجتماعٍ عاجلٍ لكي يتداولوا فيما يجبُ عليهم عملُه. وهكذا طلبَ الجميعُ من الرئيسِ أن يُبدي رأيَه ويُشيرَ عليهم بالرأيِ السّديد.

تقدّمَ الرئيسُ وشكرَهُم على ثِقتِهم الغاليةِ ثم قال :

– إذا أردتُم رَأْيي ، فإني أقولُ لكم ، لا تُضيّعوا الوقتَ أيُّها الرفاقُ بل سارِعوا إلى مطارَدَةِ التّتار ، لأنّكم تعلمون ما هو التَتريُّ. فهو لن ينتظرَ قُدومَنا ، بل سَيُبدِّدُ غنائمَه بسُرعة، ولن يتركَ أثراً يدلُّ عليه. لم تعدْ بنا حاجةٌ الآنَ لِلبقاءِ هنا ، إذ أن مدينةً جائعة

هي ذاتُ نفعٍ قليلٍ لنا ، علاوةً على أننا قد أثبتنا لهؤلاء البولونيين من هم القوزاق .

لكنّ هذا الحديثَ لم يَرُقْ لِتاراس بولبا ، وقال :

ــ أنا لا أُوافقُ على ذلك . إن رأيَكَ ليس بالرأيِ السّديد . لقد نسيتَ كما يبدو إخواننا الأسرى في أيدي البولونيين ، إنك تريدُنا أن نتركَهم تحت رحمةِ الأعداءِ لكي يُنكّلوا بهم . أيُّ نوعٍ من الرجالِ نحن حتى نتخلّى عن رفاقِنا وهم في مِحنتِهم هذه !! كلاّ ، لن أتركَ هذا المكانَ ولو ظللتُ وحدي .

فقال الرئيسُ حينئذٍ :

ــ لعلّكَ نسيتَ أن هناك رِفاقاً لنا في أيدي التتارِ أيضاً ، وما لم نسارعْ إلى إنقاذِهم فسوف يُباعون في سوقِ العبيد ، وذلك المصيرُ أقسى من الموت .

استمعَ القوزاقيّون إلى هذا الحديثِ دُون أن يَدْرُوا ما يقولون ، ولكن كاسيان بوفديوغ ، وكان الأكبرَ سِناً في الجيش ، تقدّمَ إلى الأمامِ وقال :

ــ لقد كانت كلماتُ الرئيسِ حكيمةً بِصفتِه قائدَ الجيش الأعلى والمسؤولَ الأوّلَ عن حياةِ وممتلكات القوزاقيّين . وكانت كلمةُ تاراس عظيمةً أيضاً ، لأنّ أولَ واجبٍ على القوزاقيّ أن لا يتخلّى عن رفيقِه . لذلكَ فهذِه هي كلمتي : ليذهبْ فريقٌ منكم وراء التتار ، وليبقَ الفريقُ الآخرُ هنا .

صفّقَ القوزاقيّون لهذا الاقتراحِ الحكيم ، ثم تقدّمَ الرئيسُ وقال :

ــ أرى أيها الأصدقاءُ أن الاقتراحَ الذي تقدّمَ به بوفديوغ قد نالَ موافقتَكم . لذا علينا الآن أن نبدأَ خطوتَنا التالية ، وهي معرفةُ من منكم يُريدُ الذهابَ وراءَ التتار ، ومن يريدُ البقاءَ هنا ؟ من أرادَ الذهابَ فَلْيَقِفْ إلى اليمين ، ومن أرادَ البقاءَ فَلْيَقِفْ إلى الشّمال .

شرعَ القوزاقيّون ينتقِلون كلٌّ حَسْبَ رغبتِه . وفي النهايةِ بدا أن الفريقَين كانا متساوِيَيْن في العدد . ثم انتقلوا إلى التصويتِ على من سيرأَسُ الحملةَ الذاهبة

وراءَ التتار . فانتخبوا الرئيسَ لكي يقودَهم على أن يتولّى تاراس بولبا قيادةَ القواتِ الأخرى الباقيةِ هناك. أما بوفديوغ فقد قرّر البقاءَ مع بولبا .

انتظم الجميعُ ووقفوا في صفوفٍ متراصّة ، وسار الرئيسُ بينهم وقال :

– والآن ، أيُّها الإخوة ، وبعدَ أن انتهينا ، فليودِّعْ أحدُكم الآخر ،فالله وحده يعلمُ متى ستلتقون من جديد .

* * *

لم ينطلق القوزاقيّون على الفور ، بل قرّروا الانتظارَ حتى يَحِلَّ الظلام، لكي لا يراهم البولونيّون، فيستغلّوا هذه الفرصةَ لمهاجمةِ إخوانهم الّذين بَقُوا هناك . وهكذا فقد ذهبوا إلى مواقعِهم ليتناولوا طعامَ الغداءِ ويستريحوا قليلاً قبل انطلاقهم . لقد شعروا أنهم مُقْدِمون على مغامرةٍ لا يعلمُ أحدٌ غير الله نتائجَها .

وما إن حلَّ الظلام ، حتى بادروا إلى تجهيزِ

العرباتِ ودَهْنِها بالقطران . وبعد أن باتَ كلُّ شيءٍ على أتمِّ الاستعدادِ بعثوا عرباتِهم في المقدّمة ، ثم ودَّعوا رفاقَهم مرةً أُخرى وأسرعوا يلحقونَ بعرباتهم التي كانت تسيرُ على مَهْل . وما لبثَ الجميعُ أن اختفوا تحت جُنحِ الظلام .

ظلَّ الرفاقُ الذين تركوهم خلفَهم يُلوِّحون لهم إلى أن اختفوا عن نظرِهم . فاستداروا وعادوا إلى أماكنِهم وقد شعروا بالحُزْنِ لمفارقتِهم لهؤلاءِ الإخوان .

وأبصرَ تاراس بولبا الحزنَ الذي خيَّمَ على صفوفِ القوزاق ، لكنّه لم يَقُلْ شيئاً ، بل تركهم على حالتِهم تلكَ حتى يَحينَ الوقتُ الذي سوفَ يستفزُّهم به بصيحةٍ قوزاقيّة داويةٍ من صيحاتِ المعركةِ ، تُعيدُ إليهم روحَهم المعنويّةَ العالية ، وتجلبُ لهم قوةً أعظم من ذي قبل .

أمر تاراس خدمَهُ أن يُقدّموا الشرابَ للجميع ، وجعلهم يتناولونَ ما شاءَ لهم ذلكَ من الخمرِ المعتّقة

التي كان يحتفظُ بها داخلَ البراميلِ في إحدى عَرَباته. وكان من الواضحِ أن تاراس كان يهدِفُ إلى غايةٍ محدّدةٍ من وراءِ عملِه هذا ، وكان يعلَمُ أن الخمرةَ قادرةٌ على استفزازِ الرجال. وهكذا، ظلّ تاراس ينتظرُ اللحظةَ المناسبةَ لكي يوجّهَ لهم حديثَه . وعندما اعتقدَ أن الوقتَ قد حانَ لذلك ، توجّهَ بالحديثِ إليهم وقال :

– ليست الغايةُ، أيّها الإخوان، من إقامةِ احتفالِنا هذا ، الاحتفاءَ بانتخابي رئيساً لكم ، فهذا شرفٌ عظيمٌ قد أوليْتُموني إياه ، بل لأن المعاركَ التي علينا أن نخوضَها مع الأعداءِ تتطلّبُ الكثيرَ من العرَقِ، وبأساً قوزاقياً عظيماً . فلنشربْ إذاً كلُّنا معاً نخبَ مجدِنا وإيمانِنا، حتى لا يُقالَ عنّا ذاتَ يومٍ باننا تخلّينا عن أصدقائنا عندما كانوا في حاجةٍ إلينا . إشربوا أيّها الإخوةُ نخبَ الزمالةِ الصادقة،وليعشْ شعبُ القوزاقِ البطلُ ، والموتُ لأعدائنا .

أخذت الهتافاتُ المدوّيةُ تتردّدُ بين صفوفِ القوزاق ، ولم يعودوا الآنَ يفكّرونَ بمكاسبِ الحربِ

وغنائمِها ، بل كانوا يحدّقون بعيداً في السهولِ والتلال،وكأنّهم النسورُ الجاثمةُ التي تنتظرُ الصيدَ . ولسوفَ تنقضُّ هذه النسورُ وتُنشِبُ مخالبَها في فريستِها . لن يُبادَ مجدُ القوزاق ، بل سيكتسحُ مجدُهم العالَمَ وستتحدّثُ الأجيالُ المقبلةُ عنهم. لأنّ كلمةَ القوّة تذهبُ بعيداً ، مثلُها مثلُ رنينِ جرسٍ نحاسيٍّ يتردّدُ صداهُ في الآفاق البعيدةِ داعياً الناس إلى الصلاة.

وهكذا ، فإنّ أحداً من داخلِ المدينةِ لم يعلَمْ أن نصفَ القوّاتِ القوزاقيةِ قد غادروا المكان وانطلقوا في مطاردةِ التتار . وفي خلالِ ذلك تأكّدتْ نبوءةُ الرئيس . لقد عادت المدينةُ من جديدٍ تعاني من الجوعِ بعد أن استهلكوا المؤنَ القليلةَ التي كان قد أحضرَها قائدُ بوزداك وجنودُه. فحاول الجنودُ البولونيّون فكّ الحصارِ عن المدينة بان خرجوا وهاجموا القوزاقيّين ، ولكنّهم ردّوا على أعقابِهم بعدَ أن تكبّدوا خسائرَ كبيرةً في الأرواح

أما اليهودُ فقد استغلّوا فُرصَةَ قيامِ البولونيّين بهجومِهِم لفكِّ الحصارِ فخرجوا يتجسّسون على القوزاقيّين . وبهذه الطّريقةِ تمكّنوا من اكتشافِ كلِّ شيءٍ عنهم ، فسارَعوا إلى إبلاغِ قائدِ البولونيّين عن ذلك .

تشجّع البولونيّون بعد سَماعِهم أنباءَ رحيلِ قسمٍ من القوزاقيّين عن المكان ، فتنادى ضبّاطُهم إلى عقدِ اجتماعٍ عاجلٍ وأخذوا يستعدّون لشنّ هجومٍ جديد عليهم . ولكن تحرّكاتِهم هذه لم تغبْ عن عين تاراس بولبا الخبيرة ، واستنتج ما يُزمعون عملَه . فقام بحركة التفافٍ سريعة وهو يصدر أوامره إلى قوّاته . وحينما أنجز كلّ استعداداته ، أخذ يخاطبُ القوزاقَ ليشجّعهم ويستحثّ من عزيمتهم ، رغم أنهم لم يكونوا بحاجةٍ إلى مثل ذلك .

كان من الواضح أن تاراس العجوزَ قد حرّك فيهم تلكَ المشاعرَ الغاليةَ التي تحيا في قلب كلّ انسانٍ بات حكيماً من خلال المعاناة ، والتّعب ، ومصاعب الحياة ،

فوقف الكبارُ منهم في الصفوف دون حَراك، ودموعهم تملأ عيونَهم المتعبَة ، ثم أخذ الجميع يلوّحون بأيديهم ويهزّون رؤوسهم وقد بدا تصميمُهم على القتال حتى النصر واضحاً في جميع تحركاتهم .

وفي تلك الأثناءِ كان العدوّ قد أنهى استعداداتِه وبات على وشك الخروج من المدينة . فقُرعت الطبولُ ، معلنةً بدءَ الهجوم . فخرج الجنودُ وعلى رأسهم النبلاءُ المدجّجون بالسلاح . ثم حملوا على مخيّمات القوزاق في كتلة متراصّة، وهم يُطلقون الوعيدَ والتهديد، مصوّبين بنادِقهم ، وعيونهم مثبّتةٌ على أعدائهم . وحالما أبصر القوزاق أنهم باتوا على مرمى طلقات بنادقهم ، أطلقوا النارَ دفعةً واحدة . وظلّوا يُطلقون النّارَ دون توقّف، فيما كان الذين في المؤخّرة يعبّئون البنادق ويعطونها للذين في المقدّمة .

كان دخانُ البارود قد غطّى الجانبين ، ولم يَعُد بوسعِ الواحد منهم رؤيةُ زميله . لكن البولونيين أدركوا أن المعركةَ لم تكنْ تتطوّرُ لمصلحتهم ، وحينما

أخذوا يتراجعون وجدوا أن الكثيرين من رجالهم كانوا قد قتلوا .

واصل القوزاق إطلاق النار من بنادقهم دون توقف، مما أثار دهشة أحد المهندسين الأجانب الذي كان يرافق القوات البولونية . وذهل من هذا التطبيق الحربي المدهش لدى القوزاق ، فقال على الفور :

– هؤلاء الزابوروجيون أفراد محاربون شجعان .

ثم أشار بأن يحول المدفع بالحال إلى مخيماتهم .

أخذت أصوات المدافع تهدر ، وارتجت الأرض وأخذ الدخان يتصاعد بكثافة، وملأت رائحة البارود المكان . ولكن الجنود الموكلين بإطلاقها لم يكونوا مدربين جيداً على ذلك ، فكانوا يصوبونها باتجاه أكثر علواً ، وكانت القذائف تمر فوق رؤوس القوزاقيين ثم تغوص عميقاً في الأرض .

أبصر تاراس بولبا أن قوات نيزاماي وستيبليكيف كانتا تتعرضان لخطر كبير، فصاح بصوت كالرعد :

– إبتعدوا عن العربات في الحال،واركبوا جيادكم.

ولكن الوقت لم يسمح للقوزاق بتنفيذ أمر تاراس بولبا . فسارع أوستاب إلى وسط العدو وضرب المشاعل التي كان يحملها جنود الأعداء. ولكنه لم يصل إلا لأربعة منها، فيما تمكن إثنان من الجنود البولونيين من التراجع إلى الخلف . وعندما رأى المهندس ذلك ، قبض على أحد المشاعل بيده وحاول إطلاق أكبر مدفع لديهم .

وما إن انطلق حتى تبعته ثلاث مدافع أخرى، هزت الأرض بقرقعتها ، وقضت على معظم أفراد فرقة نيزاماي . وما إن رأى القوزاقيون ذلك ، حتى استبد بهم الهياج ، فاندفعوا كلهم إلى الأمام . وما هي غير لحظة ، حتى كانوا قد شقوا طريقهم إلى قلب صفوف العدو وأخذوا ، وهم في ثورة غضبهم هذه ، يمزقون كل رجل يقابلونه، وأوقعوا كثيراً من الفرسان عن ظهور جيادهم ، وطعنوهم برماحهم .

كان من السهل ملاحظة صفوف البولونيين وهي

تتناقصُ نتيجةَ الخسائر التي أوقعها القوزاقيّون فيهم، وكان هؤلاءِ لا زالوا يحصدونهم حصداً. أما كوكو بنكو فقد وصلَ مع بعض رفاقِه إلى جنود المدفعيَّة وغَنِمَ أحدَ المدافع. وهناك رأى أن فريقاً آخرَ من رفاقِه كانوا على وشْك الاستيلاءِ على مدفعٍ آخر، فتركَهم وانتقلَ إلى حشدٍ آخر من جنود العدو. وهكذا، حيثما كان يذهبُ كنتَ ترى جنودَ البولونيّين القتلى يملأون المكان.

وقال تاراس منادياً ضبَّاط الفِرَق:

ـ كيف الحالُ أيها الأبطال؟ هل لا يزال معكم بارود؟

وكان جوابُ القوزاق على تاراس بولبا أن هجموا مجدَّداً وأوقعوا الاضطراب في كافَّة صفوفِ العدو، وأخذوا يصرُخون قائلين:

ـ ليهلكْ أعداؤُنا جميعاً، ولتعشْ أرضُنا الروسيَّةُ إلى الأبد.

كان الجنودُ البولونيّون قد حاصروا كوكو بنكو

وسبعة من رفاقه. وحينما أبصرَ تاراس بولبا ذلك أسرعَ لنجدتِه، ولكنَّه وصلَ متأخراً. فقد طُعِنَ كوكو بنكو برمحٍ قبل أن يتمكَّنوا من طرْد الأعداءِ الذين كانوا يُحيطون به، ووقع بين أيدي القوزاق، فيما كان دمُه يتدفَّق بغزارة من الجرح. وأدار كوكوبنكو عينيه فيما حوله وقال:

ـ إني أشكرُ الله، لأني أموتُ في أحضانِكم.

ثمَّ لفَظَ أنفاسَهُ الأخيرة. وقد جعل ذلك الجميعَ يحزنون لموته.

فَقَدَ القوزاقيّون الكثيرَ من الضحايا خلال معارِكِهم مع البولونيّين، وباتت صفوفُهم أكثرَ ضآلة. لقد فقدوا الكثيرَ من الرجالِ البواسل، ومع ذلك فإنهم ظلّوا صامدين يقاتلون العدوَّ بكلِّ عزمٍ وإصرار.

وقال تاراس لما تبقَّى من قواته:

ـ كيف أنتم أيُّها الإخوة؟ ألم تتكسَّر سيوفُكم، وتُستهلَكْ قوَّتكم؟

ـ لا تزال سيوفُنا حادّة، وقوَّة القوزاق لن

تستهلكَ أبداً ، ولن يستسلمَ القوزاقُ ما دام فيهم عِرقٌ ينبض .

ومرّةً أخرى ، ورغم قلّةِ عددِهم ، هجموا إلى الأمام . فلم يكنْ قد بقي أحدٌ من ضبّاطهم ، باستثناءِ ثلاثةٍ منهم. وأخذت أنهارُ الدماءِ تتدفّق في كلّ مكان ، وكانت جثثُ القوزاق وجثثُ أعدائهم تتكدّس معاً .

وتطلّعَ تاراس بولبا إلى السماء ورأى الصقورَ التي أخذت تتجمّع هناك استعداداً للانقضاض على فرائسها. ولوّحَ تاراس بيده ، وقال :

ـ لقد حانت اللحظةُ الحاسمة .

رأى أوستاب من مَكمنه تلكَ الإشارةَ التي أطلقها والدُه ، فخرج من مكانِهِ وأخذ يضرب جيادَ العدوّ بقوّةٍ ، مما فاجأ البولونيّين وجعلهم يفرّون أمام هذا الهجومِ الصاعق . لكن أوستاب أخذ يلاحقهم بشكلٍ مستمرّ ، ويقودُهم إلى جزءٍ من الميدان زُرعت فيه الأوتاد .

هناك أخذت جيادُ البولونيّين تتعثّرُ وتسقُط أرضاً

وتُوقع راكبيها على رؤوسهم . وحينما رأى قوزاقيو كورسون الذين كانوا يقِفون بعيداً خلفَ العربات، أن العدوّ باتَ على مرمى طَلقاتِ بنادقهم ، فتحوا النارَ عليهم ، وأوقعوا الاضطرابَ بين البولونيّين ، مما شجّعَ القوازقيّين ، وجعلهم يهتفون :

ـ النصرُ لنا ! النصرُ لنا ! الموتُ للأعداء .

فقال تاراس وهو يتطلّع باتجاه أبوابِ المدينة :

ـ كلاّ ، إننا لم ننتصر بعدُ .

وفي هذهِ اللحظة ، فُتحت أبوابُ المدينة واندفع منها فَيلقٌ من الخيّالة كان من خِيرةِ الفرسان . وكان يسيرُ في مقدّمتهم فارسٌ هو أكثرُ شجاعةً ووسامة . وكانت ضفيرته تبدو أسفلَ خوذته . وما إن رأى تاراس بولبا هذا الفارسَ ، حتى جُنّ جنونُه. فلم يكن ذلك الفارس غيرَ ابنِه أندريا .

اندفع أندريا على رأس قوّاته ، وضاعَ كليّاً في حَرارةِ المعركة . وأخذ يدوس بجوادِهِ كلَّ من كان يقفُ في طريقه من القوزاقيين ، ويسحقهم أرضاً فيما

كان يُعمِلُ سيفَه يميناً وشمالاً ، مما جعل تاراس يعجزُ عن الصمود أمام هذا المشهدِ المؤلم . فزمجرَ قائلاً :

ـ أتقتلُ رفاقك يا ابن الشيطان ؟

لكن أندريا لم يكن يرى مَنْ أمامه . كانت صورة فتاتِهِ قد حَجبت عن عينيه أيَّ صورةٍ أخرى، وكان يحاولُ أن يُبرهنَ عن استحقاقِهِ لهذا الوشاحِ الذي كان مربوطاً حول ذراعِه .

وصاح تاراس بولبا قائلاً :

ـ أيُّها الأخوان ! أيها الأبطال ! استدرِجوه فقط إلى تلك الغابة من أجْلي .

وما هي إلا لحظةٌ ، حتى اندفع ثلاثون من أسرعِ فُرسان القوزاق لينفّذوا أمرَ تاراس ، لملاقاةِ خيّالة البولونيّين . فهاجموا مَنْ كانوا في المقدّمة وأوقعوا الاضطرابَ فيهم، وفَصلوهم عن الصّفوفِ الخَلْفيّة ، فيما حَملَ غولو كوبيتينكو على أندريا فضربه على ظَهره بباطنِ سيفه ، ثم تراجعوا جميعاً من أمامِ الفرسانِ بأقصى سرعتهم .

غلى الدمُ في عروق أندريا بعد أن أصابَتْه ضربةُ غولو كوبيتينكو ، فَغرَزَ مهمازَيه الحادَّين في خاصرَتي جوادِه وانطلق بأقصى سُرعةٍ وراء القوزاق، الذين كانوا يَعْدُون باتّجاه الغابة . وكادَ يلحق بغولو كوبيتينكو لو لم تقبضْ يدٌ قويةٌ على عِنانِ جوادِه وتُوقفه .

التفت أندريا ليرى من الذي فعلَ ذلك ، وما إن رأى والده هناك حتى جَمُدَ الدمُ في عروقه ، وأخذ يرتجفُ وقد فارَقَتْه شجاعتُه .

وقال تاراس وهو يحدّق في عيني أندريا :

ـ حسناً ، ماذا ينبغي علينا أن نفعلَ الآن ؟

ولكن أندريا ظلّ صامتاً ، ولم يدرِ بماذا يردّ على والدِه ، فيما كانت عيناه مُثبتَتَيْن في الأرض .

ـ هل ساعدَك البولونيّون؟ إذن ، لقد خُنت... خُنتَ رفاقَك ، خُنْتَ والدَك ، خُنتَ وطَنك ، مقابل أيّ شيء ؟ لا شيء . إنزِل عن جوادِك إذن .

نزل أندريا عن جوادِه وكأنه طفل، ووقف أمام والدِه. فقال تاراس وهو يتراجعُ إلى الوراء ويتناول بندقيّته عن كتفه:

– إبقَ مكانك، ولا تتحرّك. إنك لا تستحقُّ الحياة، وسوف أقتلُك.

وقف أندرِيا شاحبَ الوجه وقد عَلِم أن نهايته قد دنَت، وتحرّكت شفتاه وأخذ يردّد اسمَ حبيبتهِ البولونيّةِ الحسناء.

وأطلق تاراس النار.

سقطَ أندريا على الأرض دونَ أن ينطِق بكلمةٍ واحدة. أما تاراس فقد ظلَّ منتصباً في مكانه، وهو ينظرُ إلى جسدِ ابنه الذي فارقتْه الحياة. كان جميلاً حتى في الموت: وجهُه الذي كان يعبّر عن الرجولةِ منذ فترةٍ قصيرة، قد تحوّل شاحباً شحوب الموت.

وقال تاراس:

كان يمكنُ أن يصبحَ قوزاقياً عظيماً، ولكنه فضّلَ

خيانَةَ أمته، ومات مِثلما يموتُ أيُّ كلبٍ حقير.

وقال أوستاب الذي كان قد وصلَ إلى هناك:

– ماذا فعلتَ يا أبي؟ هل أنت الذي قتلتَه؟

فنكّس تاراس رأسَه. وحدّق أوستاب بأخيه الميّت وقد امتلأَ قلبُه بالحزنِ عليه، ثم قال:

– لندفنْه بشكلٍ لائق، يا أبي، بحيثُ لا يُنكّلُ العدوُّ بجثّتِه أو تمزّقها الطيورُ الجارحة.

– إنهم سيدفنونَه دونَ مساعَدتِنا، وسيكونُ لديه الكثيرُ من النائحين والحزانى!

ظلّ تاراس بولبا يفكّر فيما إذا كان يجبُ أن يتركَه للذّئاب أو يبديَ احتراماً من أجلِ بسالَتِه كفارِس، التي تُوجِب على كلّ شجاعٍ أن يقدّرَها. وفيما هو كذلك، لَمَحَ جولو كوبيتينكو وهو يعدو نحوه.

– الويلُ لنا أيها الرئيس! لقد وصلتْ تعزيزاتٌ جديدةٌ للبولونيين، وقد جعَلَهم ذلك يزدادون قوّة.

ولم يكن جولو كوبيتينكو قد انتهى من كلامه ، حتى جاءَ إليهم بيسارنكو راكضاً ، وقال :

ـ أين أنت أيها الرئيس ؟ إن القوزاقَ يبحثون عنك ، لقد قتَلَ البولونيّون نيفيلتشكي وزادور وزني، بيدَ أن القوزاق لا يزالون صامدين في موقفهم ، ينتظرونَ أن يروْك .

وما إن سَمِعَ تاراس ذلك، حتى صاح قائلاً :

ـ إليّ بالجوادِ يا أوستاب !

انطلقَ تاراس بوليا يعدو مسرعاً على ظهر جواده ، ليُلقيَ على قوّاته نظرةً أخيرة ، وليجعلَهم يروا قائدهم قبلَ أن تدنو نهايتُهم . ولكن ، وما إن وصلوا إلى طرفِ الغابة ، حتى أحاط بهم جيشُ العدوّ من كلِّ صوب ، وظَهرَ فرسانُ البولونيين المسلّحون بالرماحِ والسيوفِ في كلِّ مكان بين الأشجار .

فصاح تاراس :

ـ أوستاب ! أوستاب ! لا تستسلم .

وأخرج سَيفَه من غِمدِه وأخذ يضربُ به في جميع الجهات . وعلى حين غِرةٍ وثبَ ستّةُ رجالٍ على أوستاب ، ولكنّه تمكّن من القضاءِ عليهم جميعاً .

وصاح تاراس :

ـ حسناً فعلتَ يا بنيّ ! حسناً فعلت يا أوستاب ! لَسوفَ أعامِلُهم بنفسِ الطريقة .

أخذ تاراس يضرب مهاجِميه ، كان يضربُ يميناً وشمالاً ، دون أن يترك أوستاب يغيبُ عن عينيه . ثم شاهد ما لا يقلُّ عن ثمانيةِ أشخاصٍ يطوّقون أوستاب . . وما هي غيرُ لحظةٍ حتى ألقَوا بأُنشوطةٍ حول عُنُقه وأوثقوه ثم حملوه بعيداً .

وصرخ تاراس وهو يقاتلُ محاولاً شقَّ طريقه :

أوستاب! أوستاب! لا تستسلم ! آه يا أوستاب !

وكان أثناءَ ذلك يضربُ كلَّ من كان يعترض طريقه . ولكنه شعَرَ فجأةً بشيءٍ ما يضربه ، وأخذت الدّنيا تلفُّ أمامَ عينيه . وفي لحظةٍ ومَضَ أمامه خليطٌ من الرؤوس والرماح ، وسقط أرضاً ، ولم يعدْ يشعرُ بشيء .

٨

قال تاراس بولبا ، بعد أن استعادَ وعْيَه ، وقد شعَرَ كمن يستيقظُ بعد يومٍ قضاهُ في السّكْر ، ويحاولُ إن يتبيَّنَ الأشياءَ من حوله .

- منذ متى وأنا أستغرقُ في النوم ؟

كان يشعر بضعفٍ شديد ، وكان يرى الغرفةَ تتراقصُ أمامَ عينَيه ، ثم رأى طوفكاتش الذي كان يجلس قُبالَتَهُ صامتاً ، وقد بدا عليهِ أنه كان يراقبُ كلَّ حركةٍ تصدرُ عنه .

وفكر طوفكاتش : « كان من الممكنِ أن تظلَّ نائماً إلى الأبد » ، ولكنه لم يقلْ شيئاً ، بل أَمَرَ تاراس أن يستريح .

وساله تاراس وهو يحاولُ أن يستعيدَ في ذهنِه ما حدث :

- ولكن ، قل لي يا طوفكاتش، أين أنا الآن ؟

- إحتفظْ بهدوئك الآن ، ماذا تريدُ أن تعرف ؟ ألا ترى أنّك ممزَّقٌ كليًّا ؟ فمنذُ أسبوعين ونحنُ نسير بك دون توقُّف ، وكنتَ أنت تهذِي من شدّة الحمّى التي أصابتْك . وهذه هي المرّةُ الأولى التي تنامُ فيها بهدوء ، وما عليك إلا أن تحتفظَ بهدوئِك إذا كنتَ ترغبُ في الشّفاء .

ولكنّ تاراس لم يقتنعْ بما كان قد سَمِعَه ، وظلَّ يحاول استجماعَ أفكارِه المشتّتة ليتذكّرَ ما حدث .

- إن آخرَ شيءً أذكرُهُ هو أن البولونيّين قد طوّقوني وكادوا يأخذونَني أسيراً . ولم يكنْ أمامي غيرُ مقاتلَتِهم .

فصرخ طوفكاتش وقد بدا الغضبُ على وجهه :

ـ لا حاجةَ بك أن تعرفَ كيفَ نجوْتَ . لقد نجوتَ وكفى . كان هناك رجالٌ لا يتخلّون عنك ، هذا كلُّ ما تحتاج إلى معرفته ! لدينا مسافةٌ كبيرةٌ من السَّيرِ الشاقّ علينا أن نقطعَها ، وما عليك إلا أن تظلَّ هادئاً ، حتى نَصِلَ إلى وِجْهتِنا بسلام .

تذكَّر تاراس عندئذٍ ابنَه أوستاب ، فصرخ قائلاً :

ـ وماذا حدث لأبني أوستاب ؟ أين هو ؟

تذكَّر تاراس على الفور ، كيف أن أوستاب قد أُلقيَ عليه القبضُ وقُيِّدَ أمامَ عينَيه ، ولا بدّ أن يكونَ الآنَ بين أيدي البولونيّين . حاول عندئذٍ النهوض ، وقد شعَرَ بالحزنِ على ابنه ، فمزّق الضماداتِ عن جِراحِه وألقى بها بعيداً عنه ، وحاول أن يقولَ شيئاً ، ولكنّه عوضاً عن ذلك ، أخَذَ يهذِي وقد عاودتْهُ الحمّى ، وأخذ يُثرثِر بكلماتٍ لا معنى لها .

اندهشَ طوفكاتش من هذا التطوُّر المفاجىء في

حالةِ صديقه ، فاخذ يهدّيءُ من رَوْعِه ، ثم أعادَ تضميدَه ودثَّرَه بجلدِ ثور وأوثقه بحبلٍ فوق سَرْجِه وانطلقَ به بعيداً ، وهو يقول :

ـ سأذهبُ بك إلى بيتك حيّاً كنتَ أم ميتاً ، ولن أَدعَ البولونيّين يَضعُون أيديَهم عليك . ويمزّقون جَسَدَك ويقذِفونَ به إلى النهر . سأذهبُ بك إلى أوكرانيا مهما كانت الظروف .

واصل طوفكاتش السيرَ ليلَ نهارَ دون توقُّف ، حتى وَصلَ به إلى معسكرِ الزابورجيّين وهو لا يزال غائباً عن الوعي . وهناك أخذَ يعالجهُ دون كَلَل ، لفترةِ شهرٍ كامل . ثم أخذتْ صحّةُ تاراس تتحسّن وجراحُه تندمل . وما مضى شهرٌ ونصفٌ حتى عاد تاراس إلى الوقوفِ على رِجليه من جديد .

وعلى الرغم من أن تاراس بولبا كان قد شُفي تماماً ، فإنه ازدادَ حزناً وغمّاً بصورةٍ ملحوظة ، وأخذت التجعّداتُ تظهر على وجهه . كان ينظرُ حولَه فيرى أنّ كلَّ شيء قد تغيّر في المعسكر . لقد ماتَ جميعُ

رفاقه القدامى ، ولم يبقَ حتى ولا واحدٌ من أولئك الذين عرفهم. أختفى اولئك الذين لحقوا بالتتار مثلما اختفى الذين تأخّروا لمحاربة البولونيين ، ولم يعد للرئيس السابق وكلّ الرفاق القدامى وجود . لقد ذهبوا جميعهم وتركوه هو .

حاول طوفكاتش أن يرفّه عن تاراس بولبا ، واستدعى له العازفين ليمجّدوا أعماله وبطولاته،ولكن دون جدوى.فكان يحملق في كلّ شيء ببرود وعبوس، وعلى وجهه حزنٌ لا يمحى ، وكان يحني رأسه أحياناً وهو ينادي :

ـ ابني ! ابني أوستاب ! أين أنت ؟

وانطلق الزابورجيّون في غارة بالبحر، وشاهدتهم آسيا الصغرى برؤوسهم الحليقة وضفائرهم الطويلة ، فيما كانوا يرتدون سراويل قوزاقيّة عريضة وأيديهم القوية تمسك بالسّياط السوداء .

وفيما كانوا في طريق عودتهم ، فرحين بالغنائم التي كانوا قد استولوا عليها في غزوتهم ، باغتتهم سفينة

تركيّة وبعثرت زوارقهم، فغرق ثلثهم في البحر. أمّا الباقون فقد عادوا وانضمّوا إلى بعضهم البعض وبلغوا مدخل نهر الدنيبر ومعهم اثنا عشر برميلاً مليئة بالنّقود .

ولكن كلّ ذلك لم يعد يثير شيئاً لدى تاراس . كان يمضي إلى المروج كمن يرغب في الصيد . ولكنه يذهب ويجلس عند شاطىء البحر وهو يشعر بضيق شديد . كان جلوسه هناك يطول أحياناً وهو منكّس الرأس يردّد دائماً :

ـ « ولدي أوستاب! ولدي أوستاب » .

وأخيراً لم يعد تاراس يستطيع أن يتحمّل أكثر من ذلك . وقرّر العودة إلى مدينة دربنو ، ليتأكّد مما حلّ بابنه ، وهل هو حي أو ميت، وليكن ما يكون.

وفي خلال أسبوع كان في أومان مدجّجاً بالسلاح، وممتطياً جواده مع رمحه وسيفه وقربة الماء المعلّقة بالسّرج . وتوجه على الفور شطر أحد الأكواخ القذرة حيث كانت النفايات تتكوّم أمام الباب . ومن

إحدى النوافذِ كان رأسُ امرأةٍ يهوديّةٍ يراقبُ تقدُّمه.

نزل بولبا عن جوادِه أمام الباب ، وعندما خرجت اليهوديّةُ لاستقبالِه سألهـا وهو يوثقُ عِنانَ الجوادِ بحلقةٍ حديدية كانت موجودةً عند الباب ، وقال :

ـ أريدُ مقابلةَ زوجِك ، هل هو هنا ؟

ـ نعم ، إنه في البيت .

ثم أسرعتْ إلى الخارجِ فأحضرتْ بعضَ الشعيرِ للجواد ، وقنّينةً من الجَعَةِ لتاراس . وعندما عادت ثانيةً إلى البيت ، كرّر تاراس سؤالَه ، وقال :

ـ حسناً ، استدعي زوجَك الآن .

فأجابت اليهوديّةُ وهي ترحّبُ بـه وتتمنّى له دوامَ الصحة ، عندما رفع الزجاجةَ إلى فمه :

ـ إنه في الغُرفةِ الأُخرى .

ـ حسناً ، سأدخلُ لرؤيته هناك ، فلديَّ عملٌ معه.

لم يكن اليهوديُّ غيرَ يانكل . كان قد سكنَ

تلكَ المِنطقَة ، وافتتحَ له حانةً هناك، وبالتّدريجِ أَخذَ يتحكمُ بكلّ النُبلاء والسادةِ في الجوار . وشيئاً فشيئاً أخذ يمتصُّ كلَّ النقودِ منهم حتى أَخذَ كلٌّ من في المِنطقةِ يشعرُ بنفوذِ هذا اليهودي وتسلّطِه .

دخل تاراس إلى الحجرة ، ووجدَ يانكل هناك ، وهو يصلّي . وقد وَضعَ على رأسِه خِرقةً متّسِخة. وما إن رأى بولبا حتى التمعتْ عيناه فُجاءة . لم يكن قد نَسِيَ بعدُ مبلغَ الألفَين من الدوكات التي كان قد عَرَضَها البولونيّون ثمناً لرأسِ تاراس بولبا .

وقال تاراس ليانكل الذي كان قد أَخذَ ينحني أمامَه ويُغلِقُ البابَ كيلا يراهما أحد :

إسمعْ يا يانكل ! لقد أنقذتُ حياتَكَ عندما حاولَ الزابوروجيّون الفتكَ بك ، والآنَ لقد حانَ دورُك ، لكي تؤدّيَ لي هذه الخدمة.

وقطّبَ اليهوديُّ وجهَه قليلاً وقال :

ـ وما هي الخدمةُ التي تطلبُها منّي ؟

ـ أن تأخذَني إلى وارسو على الفور .

فقال يانكل مندهشاً وقد ارتفعَ حاجباه :

ـ ولماذا تريدُ الذّهابَ إلى هناك ، إذا جازَ لي السؤال ؟

ـ إنني أُريدُ رؤيَةَ ابني أوستاب،ولو لمرّةٍ واحدة. فلا تضيّعِ الوقتَ في الكلام .

ـ ولكنْ ، ألا تعلمُ يا سيّدي ...

ـ إنّي أعلم كلَّ شيء . لقد عرَضَ البولونيّون تقديمَ ألفين من الدوكات ثمناً لرأسي ، يا للأغبياء ، إنهم لا يعلمون قيمته . سأُعطيك خمسةَ آلاف ، وها هي الآنَ ألفان سلفاً .

أخرجَ تاراس ألفيْ دوكا وأعطاها له ووعدَهُ أن يعطيَه الباقي عندما يعود .

تناول اليهوديُّ الدوكاتِ على الفور وأخذَ يقلّبها في يدِهِ وقد بدا السرورُ عليه والجَشَعُ الفِطْريُّ في قوْمِهِ في عينيه ، وقال :

البولنديون يجلدون قوزاقياً

ـ آهٍ ما أجملَ هذه النقود ، لا بدَّ وأنَّ الرجُلَ الذي انتزعْتَها منه قد ذهَبَ على الفورِ ورمى بنفسِه في النهر ، بعد أن أضاعَ هذه الدوكاتِ الجميلة .

ـ كان بُوسعي ألا آتي إليك ، بل أذهبَ بمفردي إلى وارسو ، ولكنّي خِفْتُ من أن يعرِفَني أحد البولونيّين ، ويقبضوا عليَّ لأنّي لا أُحسِنُ الاختباء وتدبيرَ المكائد. أما أنتم أيها اليهودُ فقد خُلِقْتم لِمثْلِ ذلك ، وبوسعكم خِداع الشيطانِ نفسِه . وهذا ما جعلَني أقدُمُ إليك . هيّا الآن ، إذهبْ وأعدَّ العربةَ لكي نسافرَ إلى هناك .

ـ مهلَك، يا سيّدي ، ليس بمثلِ هذه السُّرعة . هل تظنُّ أنه يمكنُني نقلَك إلى هناك دونَ أن أخبّئَك ؟

ـ عليك أن تتدبّر أمرَ ذلك ، خبّئْني كما تريد ، إنّما يجب أن نغادرَ هذا المكانَ على الفور. خبّئْني في أحدِ البراميل إذا أردت .

ـ وهل يظنُّ سيّدي أنه سيكون بمأمنٍ هناك ؟

أوَلاَ يعلمُ سيّدي أن كلَّ امرئٍ سوف يعتقدُ أنه يوجدُ فودكا في البرميل ، والرجالُ هناك كلّهم مولعون بالشَّراب ! وسوفَ يُلاحقونَ العربةَ ويحاوِلون أن يثْقُبوا البرميل. وعندما يكتشفونَ أن لا شيءَ هناك، فسوف يبدأُون في الصُّراخ: إن اليهوديَّ لا يحملُ برميلاً فارغاً ! فلا بدَّ أن يكونَ هناك شيءٌ ما ... إقبضوا على اليهوديّ ، وأودِعوه السجن .

ـ حسناً ، وماذا إذا وضعتَني في عربةٍ محمّلةٍ بالسَّمك ؟

ـ لا أستطيع يا سيدي ، فالقومُ جياعٌ هناك . ولسوف يسرِقون السمكَ كلَّه ويكتشفونَك !

ـ حسناً ، وماذا ستفعلُ إذاً ؟

ـ آه ، يا سيدي ، لقد وردتْ لي فكرةٌ الآن . وها هي : إنهم يَبْنُون القِلاعَ والحصونَ بكثرةٍ هنا الآن ، مما يستوجبُ نَقلَ كميّاتٍ كبيرةٍ من الأحجار والطّوب على الطرق . فلْيستلقي سيّدي في قاعِ العربة وسوفَ أضع فوقَه الطوب ، وبذلك نتمكّن من

الوصول إلى هناك دون خوف. ولسوف أحدث ثقباً في القعر لتتزود بالطعام من خلاله.

وبعد ذلك بساعة، غادرت «أومان» عربة محملة بالطوب يجرها بغلان، وقد ركب يانكل على ظهر أحدهما.

في ذلك الزمن كان بوسع أي شخص أن ينتقل عبر الحدود أو ينقل أي شيء يريد نقله دون أن يعترضه أحد، إذ لم يكن هناك لا مخافر حدود ولا غيرها. وهكذا مر يانكل بعربته من خلال أبواب المدينة دون أن يوقفه أحد. أما تاراس بولبا، فلم يكن بمقدوره أن يرى شيئاً وهو في مكمنه داخل العربة ولا أن يسمع ضوضاء الشوارع وصراخ الناس هناك.

انعطف يانكل بعربته إلى شارع فرعي معتم، كان يسمى الشارع القذر، لكونه الحي الذي جمع يهود وارسو تقريباً. وكان هذا الشارع بمثابة شارع خلفي، لم يكن يرى نور الشمس إلا نادراً. أما بيوته

الخشبية فكانت قد اسودت بفعل عامل الزمن. وكان من النادر أن يرى المرء هناك منظراً يبهج العين.

وصل يانكل بعربته إلى فناء أحد البيوت. فخرج صاحب البيت لمقابلته - وكان يهودياً أحمر الشعر يمتلئ وجهه بالنمش - وأخذ يتحدث معه بلغة غريبة. ولم يلبث يانكل أن قاد عربته إلى فناء هناك، ثم انضم إليهما يهودي آخر صدف مروره من هناك. وحينما خرج بولبا من مكمنه في العربة رأى هؤلاء الثلاثة وهم ينهمكون في الحديث.

استدار يانكل إلى تاراس وقال له: إن كل شيء على ما يرام، فلقد علم الرجل من هؤلاء الأصدقاء أن أوستاب موجود في سجن المدينة، وسوف يحاول رشوة الحراس هناك، رغم صعوبة هذا العمل وخطورته، لكي يسمح لك الحارس بمقابلته.

دخل تاراس عندئذ مع اليهود الثلاثة إلى إحدى غرف البيت، وشرع اليهود يتباحثون في الأمر، فيما أخذ تاراس ينظر إليهم. وبدا أن شيئاً ما أثار هياجه،

إذ ومضتْ فوق وجهِه الخشِن شُعلةٌ قويَّةٌ من الأمل، وقال وفي صوته علائمُ الابتهاج :

ـ أنا أعلمُ أيها اليهودُ أنه بوسْعِكم أن تفعلوا أيَّ شيء من شؤون الرِشوة ، إذ أنـه من المعروف عن اليهوديّ أنه يستطيعُ أن يسرقَ نفسَه إذا أراد . ساعِدوا ابني على الفرار من سِجنه ، وأنا أَعِدُكم بأن أعطيَ صديقَكم يانكل اثني عَشَر ألفاً من الدوكات ، بالإضافةِ إلى عددٍ من الكؤوسِ الذهبيّة ، وقسماً من ذهبي المدفون. وسأُقيمُ بيني وبينكم عهداً بأن أمنحَكُم نِصفَ ما أكسِبه في الحربِ .

فقال يانكل :

ـ ليسَ بوسْعِنا أن نفعلَ ذلك ، يا سيّدي . إن ذلك سوف يعرّضُنا لخطرٍ جسيم .

فقال يهودي آخر :

ـ سيساعدنا الله ، يا يانكل ، إذا حاولنا .

وعاد اليهودُ الثلاثةُ إلى التشاوُرِ فيما بينهم . وقد

حاول بولبا أن يفهمَ شيئاً مما كانوا يقولونه ، ولكنّه لم يتمكّن من ذلك . وبعد فترةٍ قال له يانكل :

ـ إسمع يا سيّدي ، هناك شخصٌ ينبغي علينا استشارتُه قبل القيامِ بأيّ خُطوة . إنه رجلٌ حكيم ، فإذا قال إنه لا يستطيعُ عَمَلَ شيءٍ ، فهذا يعني أن أيّ امرئٍ آخر لا يستطيعُ ذلك . إبقَ أنت هنا الآن حتى نعودَ ، ولا تدعْ أحداً يدخلُ الغرفةَ أثناءَ غيابنا.

ثم تركوه هناك ، وخرجوا إلى الشارع .

أقفلَ تاراس بابَ الغرفة بعد خُروجِهم . وأخذ يتطلّع من خلالِ نافذةٍ كانت هناك إلى الشارع القذِر ، فرأى اليهودَ الثلاثةَ وقد توقّفوا في وسط الطريق وأخذوا يتحدّثون بحماس، ثم رأى شخصين آخرين وقد انضمّا إليهما وأخذ الجميعُ يردّدون اسم «ماردوخاي».

استمرَّ اليهودُ الخمسةُ يقِفون هناك وهم ينظرون باتّجاه أحدِ أطرافِ الشارعِ وكأنهم كانوا ينتظرون أحداً ما . وفجأةً بَرَزَ من خلْفِ زاويةٍ أحدُ اليهودِ

الذي ما إن رأوْه حتى أخذوا يصرُخون بصوتٍ واحد:

ـ ها هو ماردوخاي ! لقد وصل ماردوخاي .

تقدّم منهم يهوديٌّ نحيلٌ أقصرُ قامةً من يانكل . وأسرعَ هؤلاء يحدّثونه عن الغايةِ من مقابلته، وأوضحوا المهمةَ التي كانوا ينوون القيامَ بها . فأخذَ اليهوديُّ القصيرُ ينظر باتّجاه البيت . وقد استنتجَ تاراس ، الذي كان لا يزالُ يقفُ عند النافذةِ يرقُبُ ما كان يجري في الشارع ، أنهم كانوا يتحدّثون عنه .

أخذ ماردوخاي يلوِّحُ بيديه ، فيما كان يستمعُ إلى حديثِهم. وأخيراً ارتفعت أصواتُ اليهود بشكلٍ أثار خوفَ اليهوديّ الذي كان يقفُ مراقباً ، وطلب منهم أن يخفِضوا أصواتَهم . وقد أثار ذلك خوفَ تاراس على سلامته ، ولكنّه استعادَ هدوءه عندما تذكّر أن اليهود لا يتحدّثون إلا في الطريق ، حيث لا يستطيعُ أيُّ امرئٍ غيرِ يهوديٍّ أن يفهم شيئاً مما كانوا يتحدّثونه .

ما لبثَ اليهودُ أن عادوا معاً إلى الغرفة ، وتقدّمَ ماردوخاي من تاراس بولبا وربّتَ على كتفِهِ وقال :

ـ لِيعلَمْ السيّدُ أننا إذا ما صَمّمْنا على القيامِ بعملٍ ما ، فإننا دائماً نجدُ الطريقةَ المناسبةَ لتنفيذِه ، إذا كان الثمنُ هو المال .

أعادتْ هذه الكلماتُ الأملَ إلى تاراس بولبا. وعندما نَظَرَ إلى اليهوديّ الذي وقف أمامه، بدا له أن منظرَه يوحي بالشّفقة . كان وجهُ ماردوخاي يحملُ عدداً كبيراً من آثارِ الضرَبات ، التي لا بدّ قد نالها أثناء قيامِهِ ببعض الأعمالِ الجريئةِ في نظرِ اليهود، كالسَّرقةِ ، وقَتلِ الضعيف .

انطلق اليهودُ من الغرفة مرّةً أخرى، وتُرِك تاراس بولبا بمفرَده، وقد شعرَ بغرابةِ هذا الوضْعِ الذي وجد نفسَه فيه ، مما جعله يشعرُ بالقلَقِ مرةً أخرى . لم يعدْ تاراس بولبا ذلك البطلَ الذي لا ينحني لأحدٍ ، بل أصبح حائر القلبِ ، ضعيفاً ، يجفُلُ أمام كلِّ صوت ، ويفزَع من كلِ نظرةٍ يوجّهُها أحدُ اليهود .

قضى تاراس بولبا نهارَه كلَّه ، وهو في حالته النفسيّةِ السيّئة هذه، فلم يَذُقْ طعاماً ولم تفارقْ عيناه

النافذة . وأخيراً ، عاد ماردوخاي ويانكل بعد هبوط الظلام . وما إن ولجا باب الغرفة حتى بادرهما تاراس بلهفة بالسؤال عمّا فعلوه .

لم يردّ اليهوديّان على تاراس بولبا على الفور ، بل أخذ يانكل يفرك يديه ويستجمع شجاعته للإجابة . أما ماردوخاي فقد بدا عليه أنه كان يرغب في قول شيء ما ، ولكنه بدلاً عن ذلك ، انفجر يتحدّث بكلمات لم يفهم تاراس بولبا منها شيئاً . لكنّ يانكل استجمع شجاعته في النهاية وقال:

ـ أيها السيّد ، ليس بإمكاننا عمل شيء ، هناك ثلاثة آلاف جنديّ يعسكرون في هذه المدينة ، وسوف ينفّذ حكم الإعدام في جميع الأسرى صباح الغد. إنهم قوم ماكرون،لقد فعل ماردوخاي كلّ ما في وسعه. وإذا أراد سيّدي رؤية ابنه ، عليك أن تفعل ذلك في وقت مبكّر من صباح الغد . لقد تمكّنا من نيل موافقة بعض الحرّاس بعد أن أعطينا كلاً منهم خمسين من الدوكات ، أما رئيسهم فقد أعطيناه ....

لم ينتظر تاراس بولبا من يانكل أن يكمل حديثه بل انفجر يقول بتصميم وقد استعاد قوّته وعزمه كما كان دائماً :

ـ حسناً ، خذوني إليه ، سوف أذهب لرؤيته ولو كلّفني ذلك حياتي .

ووافق تاراس على اقتراح يانكل بأن يتخفّى في زيّ كونت أجنبيّ كان وقد وصل توّاً من ألمانيا، بعد أن كان هذا قد استحضر ملابس ملائمة لهذا الغرض .

استلقى تاراس بولبا على فراش مصنوع من الحشائش كان قد أحضره له اليهوديّ ذو الشّعر الأحمر، فيما رقد يانكل على فراش مماثل إلى جانبه. غير أن تاراس لم يتمكن من النوم تلك الليلة، فقد جلس دون حراك ، وغليونه في فمه ينفث الدخان إلى الخارج ، حتى إن يانكل اضطرّ أن ينقل فراشه من جانبه . ولم يكد أول بصيص من نور الفجر يبدو في الأفق ، حتى دفع تاراس يانكل بقدمه قائلاً :

ـ هيّا أيها اليهوديّ ، أعطني الملابس التي أحضرتها.

وما إن فعل يانكل ذلك ، حتى بادرَ تاراس بولبا إلى ارتدائها ، ثم صَبَغَ شواربَه وحاجبَيْه بلونٍ أسود ووضعَ قبعةً سوداء على رأسه . ولم يعدْ أقربُ أقربائه من القوزاق يستطيع معرفتَه ، فغدا وكأنّه قد عادَ به العُمُرُ إلى الخامسة والثلاثين . أما الثيابُ التي ارتداها فقد كانت لائقةً به تماماً .

وعندما انطلقَ تاراس بولبا ، كانت الشوارعُ لا تزالُ خاليةً من الناس ، ولم يكنْ قد ظهر أحدٌ في المدينة بعد . فوصل مع يانكل إلى مبنى يَميلُ لونُه إلى السَّواد ، وكان منخفضاً ومتّسِعاً بشكلٍ كبير . وكان هناك برجٌ عالٍ يرتفعُ على أحدِ جوانبه . كان هذا البناء يُستخدم بمثابةِ ثُكنةٍ للجنود ، وسجنٍ ، ودارٍ للمحكمة .

ولجَ تاراس ويانكل البابَ ووجدا أنفسَهما في قاعةٍ رحبةٍ غاصّةٍ بالعديدِ من الجنود النائمين هناك . وأمامهم مباشرةً كان ثمةَ بابٌ قد جلس أمامه حارسان يلعبان

الورق . ولم يُبديا أيَّ اهتمامٍ بالقادمين ، إلا عندما قال يانكل لهما :

– ها قد أتَيْنا ، أيها الأصدقاء .

فقال أحدُهما وهو يفتح الباب :

– هيّا ، أدخلا .

سار تاراس بولبا ويانكل في ممرٍّ ضيّقٍ مُعتم ، فوصلا إلى غرفةٍ أخرى شبيهةٍ بالغرفة الأولى ، ذاتِ نوافذَ صغيرةٍ مرتفعة ، ورأى تاراس أثناءَ سيرِه عدداً كبيراً من الجنودِ بكاملِ أسلحتِهم . وارتفعت أصواتٌ متعدّدةٌ تسأل :

– مَن هناك ، لدينا أوامرُ بأن لا ندعَ أحداً يمرّ .

وهتف يانكل :

– إننا نحن ، أيها السادةُ النّبلاء !

ولكنّ أحداً لم يُصغِ إليه . ولكنْ لحُسْنِ حظّهما أنْ قَدِمَ في تلك اللحظةِ رجلٌ قويُّ البِنْيةِ

يبـــدو من منظرِه أنّه كان الضابطَ المسئولَ هنـاك ، فبادرَهُ يانكل قائلاً :

ـ ها نحنُ يا مولاي ! إنك تعرِفُنا ... إن سيّدي الكونت يقدمُ لـــك شُكره ، وسوف يشكرُك مرة أخرى .

أمرَ الضابطُ عندئذٍ الجنودَ أن يسمحوا لهما في المرور، ولا يسمحوا لغيرِهما . وأخذ يانكل يقولُ لكلِّ مَنْ يلتقيانِ به : « هـا نحنُ ... إننا أصدقاء » . ولما بَلَغوا أخيراً نهايةَ الممرّ ، سأل يانكل أحدَ الحرّاس :

ـ هل نستطيعُ الدخولَ الآن ؟

ـ أجل ، غير أني لا أعلم إذا كانوا سيسمحون لكُما بالمرورِ في داخلِ السجن ، إن « جان » لم يعدْ هناك ، وقد حلَّ مكانَهُ رجلٌ آخر .

فتمتم اليهوديُّ بصوتٍ منخفض :

ـ يالَسوءِ الحظّ ، إن هذا لشيءٌ مؤسف .

وقال تاراس بولبا بعناد :

ـ لنستمرّ ، هيّا تقدّمْ .

واصلَ يانكل التقدُّمَ بصمتٍ إلى أن وصل بابَ السِجن حيث وجـدا هنـاك جنديّاً ذا شواربَ يقفُ منتصباً أمـامه . فانحنى اليهوديُّ تحيّـةَ احترامٍ وأخـذَ يتقدّم نحوه ، وعندمـا أصبحَ على مَقْرُبةٍ منه ، بادرَه قائلاً :

ـ يا صاحبَ السّعادة ، أيها الضابطُ البطل !

ـ هل تخاطبُـني أيها اليهوديّ ؟

ـ نعم ، أيها السيدُ الجليل .

ـ ولكني لستُ غير جندي عـادي ، وأنا لستُ بضابط .

ـ وحقّ السماء، إنكَ تبدُو وكأنّك حاكمُ المدينة ! يليقُ بك يا سيدي أن تكونَ قائدَ فِرقة، وتعتلي صَهوة جوادٍ أصيل .

رفع الجنديُّ يَدَه إلى شاربه ، وقد أعجبَه هـذا المديحُ الذي أخذَ اليهوديُّ يَكيله له ، وومضت عيناه بنظراتِ الحبور .



وتابع يانكل حديثه :

ـ ما أطيبَ العسكريّين ، وما أرقَّ قلبَهم . وأينما ترى العذارى اليهوديّاتُ الرجالَ العسكريّين من البولونيّين ... أوه ، أوه ! إنّهنّ يعشقْنهُم . وهم يدفعُون لهنَّ بسَخاء ..

وهزَّ اليهوديُّ رأسَه مرةً أخرى . وبعد صمتٍ قصيرٍ عاد يانكل لمواصلةِ حديثه ، وقال :

ـ إنّني أتوسّل إليك ، أيها الفارس الشَّهم ، بأن تؤدّي لنا هذه الخدمة . رفيقي هنا ، هو أحدُ الأُمراء ، وقد جاءَ من بلادٍ بعيدة ليرى القوزاق بعد أن سمع عنهم الشيءَ الكثير . إنه لم يرَ في حياته أيَّ نوع من الرجال هم القوزاق .

ـ لستُ أدري يا سيّدي ، لماذا تريدُ التفرجَ عليهم ، إنهم كلابٌ وليسوا بشراً ، ولا يستحقّون مثل هذا العناءِ الذي تكبّدتُموه في مجيئكم إلى هنا .

وقال بولبا ، وقد أثارتْهُ كلماتُ الجنديّ :

معركة القوزاق

- أنت تكذِب ، يا ابنَ الشيطان . أنت نفسُك الكلب ، كيف تجرؤ ان تقولَ هذا عن القوزاق .

فقال الجنديّ ، وقد أخذتـهُ الدّهشة :

- يبدو أنك واحدٌ منهم، حتى تُدافعَ عنهم هكذا ، إنتظرْ حتى أدعو الرجالَ إلى هنا .

أدرك تاراس غلطته بعد فوات الأوان . ولكن العنادَ والغيظَ منعاه من إصلاح غلطته. ولحسن الحظ ، بادر يانكل إلى نجدته على الفور :

- ماذا تقول أيها الضابطُ الشجاع، وكيف يُعقل أن يكون سعادةُ الكونت من القوزاق؟ وحتى لو كان كذلك، فكيف له أن يحصل على هذا اللباس الذي يرتديه؟

- ان أكاذيبَك ، أيها اليهوديُّ القذِر ، لن تُقنِعني .

وفتح الجندي فمه لينادي إخوانه من الجنود، ولكن يانكل بادره بقوله :

- إهدأ قليلاً ! أيها الضابط ، ولن تندمَ على ذلك ،

إننا سوف نكافئك كما لم يكافأ إنسان، خُذ هاتين القطعتين من الدوكات الذهبية !

- ماذا ؟ دوكتان! ومن تظنني أيها اليهوديّ الجبان؟ إنني أعطي مثلَها للحلاّق الذي يقص لي شعري . أنا أريد مائةً من الدوكات ، وإلاّ ..

فقال يانكل بحزنٍ وقد بدا الامتقاعُ على وجهه :

- إن هذا المبلغَ كبيرٌ أيها الضابط الشريف ، وأنا لا أملِك مثلَهُ الآن . ثم أخرج كيس النقود من جيبه وأفرغه في يد الجندي .

وقال يانكل وهو يلاحظ ان الجنديّ كان يقلّب النقود بين يديه :

- دعنا نذهب ! فانت ترى أن جميع العيون هنا وقد أصبحت مصوّبةً نحونا الآن .

وقال بولبا :

- لقد أخذتَ ما تبتغي من النقود ، ولا زلتَ متردّداً في السماح لي برؤية هؤلاء القوزاق . يجب أن

أراهم ، فـأنت لا تستطيع ان ترفض الآن بعـد أن أخذت النقود .

ـ لن أسمح لكما بالمرور ، وإذا لم تغادرا هذا المكان على الفور فسوف أدعو رفاقي من الجنود الآن وتكون عاقبتكما وخيمة ..

فصرخ يانكل :

ـ سيدي! سيدي! باسم السماء ، دعنا نذهب .

ولكن بولبا استدار ببطء ، وعاد وهو يحني رأسه. وما لبث يانكل أن تبعه منكس الرأس يشعر بالأسى لفقدانه المال . بيد أن فشلهما ترك أثراً سيئاً لدى بولبا ، وكان هذا الأثر من القوة أن جعل اللهب يبدو في عينيه ، فقال بغتة لرفيقه يانكل:

ـ لنذهب إلى الساحة ، فأنا أريد ان أرى كيف يعذبونه .

وعندما رأى يانكل تصميم تاراس بولبا على الذهاب إلى الساحة ، لم ير مفراً من مرافقته فندت عنه

تنهدة عميقة وأخذ يجر نفسه ، وهو يلعن الساعة التي جعلته يشترك في مثل هذه العملية الفاشلة .

لم يكن من الصعب العثور على الساحة التي سيجري فيها تنفيذ حكم الإعدام بالقوزاق . فقد كانت الجماهير تحتشد هناك قد أقبلت من كافة أنحاء البلاد لمشاهدة ذلك . كان هناك الكثير من النساء ، وكن يطلقن صيحات هستيرية، « آه ، يا لأعمال التعذيب! » ولكنهن مع ذلك ، كن يواصلن مشاهدة هذه الأعمال البربرية حتى نهايتها . وكان يرى وسط الجماهير المحتشدة في الساحة وجه قصاب بدين ، يرقب العملية كلها بنظرة الخبير العارف، ويتحادث مع صانع أسلحة كان يدعوه أخاه بالرضاعة .

وفي الجزء الأمامي من الساحة ، وقف شاب يرتدي الثياب العسكرية ، إلى جانب الجنود ذوي الشوارب الكثيفة ، وقد بدا أنه قد ارتدى كل ما بحوزته من الملابس.

كان هذا الشاب يقف إلى جانب حبيبته ايزيفا ،

ويتطلعُ حولَه في كلّ لحظة ، ثم يشرحُ لها كل شيء بتفصيلٍ دقيق بحيث يعجزُ المرءُ عن مجاراتهِ في هذا المضمار . ثم قال لها :

ـ كلُّ هؤلاءِ الناسِ قد حضروا إلى هنا ليُشاهدوا عمليةَ إعدامِ المجرمين . أما ذلك الرجلُ ، الذي تُشاهدينه هناك ممسكاً بالفأسِ فهو الجلاّد .

كانت سطوحُ البناياتِ المجاورةِ مزدحمةً بالناس، فيما كانت الشُرفاتُ تمتلىء بكبارِ القوم من النبلاءِ والسادة ، فيما كان أحدُ الخدَمِ يقدمُ إليهم المرطّباتِ، وكأنهم يشاهدون إحدى الحفلات .

وفجأةً ، أخذت الضوضاء تعمُّ الجمهور ، وسُمعت بعضُ الأصوات من كلّ جانبٍ وهي تقول :

ـ لقد أحضروهم ! لقد جلبوا القوزاق !

وما هي إلا لحظاتٌ حتى ظهر القوزاقُ بضفائرِهم الطويلة ، ولحاهُم غيرُ حليقة . لم يكونوا خائفين ولا مكتئبين ، بل كانت سيماءُ الكبرياء تبدو على وجوهِهم .

كانت ثيابُهُم ممزّقة ، ولكنّهم ساروا بين الجماهيرِ المحتشدةِ دون أن يلتفتوا إلى أحدٍ منهم. وكان أوستاب يسيرُ أمام الجميع .

حملقَ تاراس بولبا في ابنه ، وقد أخذ قلبُهُ يختلج بمختلفِ المشاعر . كان اوستاب يسير باقدامٍ ثابتة ، ولم يُضِع ولا حركةً من حركاته . كان عليه أن يشرب تلك الكأسَ التي أعدّها البولونيون له قبلَ غيرِه ، فنظر إلى رفاقه ، ورفع يدَه وقال بصوتٍ مرتفع :

ـ ليمنحنا الله القوّة ولا يسمحْ لهؤلاءِ الهراطقةِ الكافرين أن يسمعوا أحداً منا يتألّم ، أو ينطقُ بأي كلمة .

ثم تقدّمَ نحو المِشنقةِ بقدمٍ ثابتة . فقال تاراس بولبا ، وهو ينكّس رأسه :

ـ حسناً تكلّمتَ يا بنيّ ! حسناً تكلمت .

مزّق الجلاّدُ ملابسَ أوستاب ، ثم قيّد يديه

وقدّمَيه إلى أداةِ التعذيب بقيودٍ من الجلد قد صنعت خِصّيصاً من أجلِ هذه الغاية .

* * *

وسوف نتجاوزُ أيّها القارىءُ العزيزُ وصْفَ التعذيبِ الجهنميّ الذي يجعلُ شعْرَ الإنسانِ يقفُ على أطرافه. وكل ما نودُّ قولَه هو أن طُرقَ التعذيبِ هذه كانت حَصِيلةَ تلك العصورِ البربريّة الخَشِنة .

تحَمَّلَ أوستاب الآلامَ وضُروبَ التّعذيب بكلِّ شجاعة ، ولم تسمع منه صرخةً أو أنّةَ ألَمٍ . حتى عندما بدأو يكسِرون عِظامَه لم تَفلَتْ أنّةٌ واحدة منه ، ولم ترتعش عضَلةٌ واحدة في وجهه.

كان والده يرى كلَّ ذلك وهو يقفُ بين الحشد مَحنِيَّ الرأس، ولكن عينَيه كانتا شامختَين بكبرياء، وظل يردّدُ باستحسان :

ـ « حسناً فعلتَ يا بنيّ ! حسناً فعلت » .

لكنّ أوستاب بدا وكانه لم يَعُدْ يحتمل المزيدَ من

هذا التّعذيب الوحشيّ ، عندما جرّوه في آخرِ مرحلةٍ من مراحل ذلك التّعذيبِ . فقد نَظَرَ إلى ما حوله .. ربّاه ، ! إنها وجوهٌ غريبةٌ شامِتة ! حبّذا لو كان هنا أحدٌ عزيزٌ يشهدُ موته ! لقد رَغِبَ في رؤيةِ رجلٍ ثابتِ الجَنان ، يزوّدُه بكلمةِ تشجيعٍ وعزاءٍ في ساعةِ موتِه .

وخذَلَتْه قوّتُه في النهاية ، وصرخَ من أعماقه وهو يغالبُ سَكَراتِ الموت :

ـ أينَ أنتَ الآنَ يا والدي ، هل تسمعُني ؟

ودوى صوتُ تاراس بولبا عَبْرَ الجماهيرِ المحتَشِدَة كصوتِ قَرْعِ أحدِ الطبول :

ـ إني أسمعُك ، يا ولدي .

فُوجئت الجماهيرُ بهذا الصوتِ الذي انطلقَ من وسْطِهم ، واندفعَ فريقٌ من الجنودِ على صهواتِ جيادِهم يبحثون عن صاحبه. أما يانكل الذي كان يقفُ على مقربةٍ من بولبا فقد امتقعَ وجهُه حتى حاكى

وُجوهَ الأموات . وحالما اقتربَ الفُرسانُ من مكانه ، تلفَّتَ حوله برعبٍ . ولكن هذا لم يَعُدْ هناك ، ولم يعدْ له أيّ أثرٍ . كان قد اختفى عن الانظارِ دون أن يشعرِ به أحدٌ ، حتى رفيقهُ يانكل .

١٠

الواقِعُ أن آثارَ تاراس بولبا لم تضِعْ ، إذ أنه لم يمضِ غيرُ فترةٍ قصيرةٍ على إعدامِ أوستاب، حتى ظهر جيش قوزاقيّ قَوامهُ مائةٌ وعشرونَ ألفِ رجلٍ على حدود أوكرانيا .

ولم يكنْ هـذا الجيشُ فريقـاً صغيراً مُهِمّتُهُ السّلبُ ومطاردَةُ التتار ، كلا ، بل ان الأمةَ بأسْرِها قد نهضت، لانّ صبْرَ الشعبِ القوزاقيّ قد بلَغَ نهايته. لقد نهضت هذه الأمة لتثارَ وتسترجعَ حقوقَها المغتصَبة ، وترفعَ الجورَ النازلَ بهـا ، وللقضاءِ على السّيطرة اليهوديّة المجرمة على أموالها..

كان قـــائدُ الجيشِ القوزاقي هو استرانيتسا ، الفتى الشجاع . وكان مستشاره هو غوينا، رفيقُه في السلاح ، بينما كان هناك ثمانيةٌ من الضبّاط اللامعين يقودون الفِرقَ التي كانت كل منهـــا يتألّفُ من اثني عَشَرَ ألفِ مقاتل .

وكان هنـاك أيضاً كثيرٌ من الضبّاط الآخرين في فِرق المشاةِ والفرسان ، المجنّدِين منهم والمتطوّعين . لقد نهض القوزاقُ من كلِّ مكانٍ لينضمّوا إلى جيشِهم ويشتركوا في الدِفاعِ عن أرضِهم ووطنهم .

كانت خيْرُ الفِرق بين فِرقِ الجيشِ الثانية ، هي الفرقةَ التي يقودُها تاراس بولبا ، وكان كلُّ شيءٍ يميّزه عن الآخرين : مهارتُه في القيادة ، وكراهيته الفائقةُ للعدوّ ،حتى إن بعض القوزاق أخذوا يفكّرون أن شراستَه الفظّةَ وقسوتَه قد تجاوزتا كلَّ حد .

خاض هذا الجيشُ معاركَ كثيرةً أظهرَ فيها القوزاقُ بسالتَهم وإقدامَهم . لقد سجّلتْ صفحاتُ الأحداثِ بشكلٍ مفصّل كيف أن الحامياتِ البولونيةَ

كانت تهربُ من المدُن التي كان يهاجمها القوزاق، وكيف أن المرابين اليهودَ كانوا يشنقون لقــاءَ فسادِهم ، وكيف أن القائدَ الملكيَّ ميكولاج بوتوكي كان عاجزاً أمــامَ هذه القوةِ التي لا تُقهر . وكيف خسِرَ القسمَ الأكبرَ من قوّاته عندما أخذ يتراجعُ متقهقِراً أمام مطارديه . لقد حاصرتْه الفرقُ القوزاقيةُ في مدينةِ بولوني الصغيرة ، وحاقت به الهزيمة . فتعهّد لهم بتنفيذِ كلِّ طلباتهم وإعادةِ كلِّ حقوقِهم وامتيازاتهم السابقة .

ولكنّ القوزاقَ لم يصدّقوا هـذه الوعود . كانوا يعلمون مدى قيمتها ، وما كان لبوتوكي أن يعاودِ امتطاءَ صهوةِ جواده ، ويُقيم الولائمَ لكبارِ القوم .. لو لم يُنقذ قساوسةُ الروسِ حياته ، عندما خرجوا جميعاً لاستقبالِ جيش القوزاق الزاحفَ ، وعلى رأسهم الأسقفُ بنفسه .

لم يكونوا يُبدون الاحترام ، حتى للملك نفسِه، ولكنّهم لم يجرُؤوا على أن يتمرّدوا على كنيستهم . لذا فقد أطاعوا قساوستهم ، ووافقَ قائدُهم على إطلاق

سراحِ بوتوكي ، بعد أن جعلوه يتعهّد بعدم إزعاجهم ولا يلحِق أيّ ضَررٍ بالامارات القوزاقية،في المستقبل.

واحدٌ فقط من بين قوّادِ القوزاق لم يوافِق على مثلِ هذا الصُلح ... إنه تاراس بولبا ! فقد نتَفَ شعرةً من رأسِه وصاح :

ـ إنّي أُحَذِّرُك أيها القائد ، وأنتم أيّها الضبّاط. فالبولونيون لا يوثَق بهم ولا بوعودِهم ، إنّهم سَيخدَعونكم .

ولكن أحداً منهم لم يوافقه على قوله هذا .

وعندما قَدَّمَ الكاتبُ نصوصَ الاتفاق ، ووقّعها القائدُ الأعلى لجيشِ القوزاق ، شَهَرَ تاراس بولبا سيفَه وكَسَرَه إلى نِصفَين وألقى بكلٍّ قطعةٍ منه في جِهتَين متقابلتَين وهو يقول :

ـ كما أن هذَين النِصفَين لن يلتقيا ويعودا نصلاً واحداً، هكذا نحنُ أيها الرفاق، لن نَرى بعضَنا البعضَ بعد الآن ، فتذكّروا كلماتي هذه.

وهنا ارتفعَ صوتُه بقوةٍ ظلّ القوزاقيون يجهلون مصدرها ، وارتعد الجميع عندما سمِعوا نُبوءَتَه هذه .

ـ سوفَ تذكُرون تاراس بولبا في ساعةِ موتكم ! هل تعتقدون بأنّكم قد فزتُم بالسّلامِ والهدوء ؟ وبانكم قد انتصرتم عليهم الآن ؟ كلا ، أيُها السادة ! إنكم تتوهّمون ذلك فقط، فالآخَرون سوف يَسودون عليكم ، وأما أنتَ أيها القائد ، فسوفَ يَسلَخون جلْدَك ويَحشُونه بالنُخالة ويَعرِضونه في كل الأسواق . وأنتم أيها الإخوان ، لن يتمكّنَ أيٌّ منكم من إنقاذِ رأسِه ، وسوف تَشيخون في زَنزاناتِهم الرطبة ، هذا إذا لم يَسلُقوكم في القُدورِ مِثلَ لحمِ البقر .

ثم التفت إلى رجاله وقال :

ـ أمّا أنتم يا أبنائي ، من يُريد منكم أن يموتَ موتَ قوزاقيٍّ حقيقي ؟

وصاح كلٌّ من كان في فرقة بولبا : « إننا سنتبعُك أينما ذهبت » . فقال تاراس ، وهو يضع قُبَّعته على رأسه

ويحملق في أولئك الذين تخلّفوا : « إذا كانت هـذه رغبتكم ، فاتبعوني إذاً » . ثم استوى فـوق جواده ، وصاح برجاله :

– عسى أن يذكرونا بأيّة كلمة سيّئة ! هيّا أيها الأبطال، لنتمّ المهمّة التي نذرنا أنفسنا من أجلها .

ومـا إن انتهى من كلماته هـذه حتى ضرب جواده بسوطه، ثم انطلق، تتبعه قافلة طويلة من العربات . وإذ استدار بولبـا ، ليلقي نظرة أخيرة على أولئك الذين بقوا وراءه ، امتلأت عيناه بالغضب .

لبث قائد الجيش وضباطه فترة طويلة منكّسي الرؤوس ، يستعيدون بولبـا ، وقد شعروا أن نذر الشر تطبق عليهم . فلم يكن بولبا قد قال ما قاله أثنا فورة غضب عارضة ، بل كان ذلك ناشئاً عن خبرته الطويلة بهؤلاء الناس . وقد حدث كلّ ما تنبّأ به ، فلم يمض وقت قصير حتى كان رأس قائد جيش القوزاق ورؤوس ضباطه معلّقة على الأعمدة ، نتيجة غدر البولونيين ونقضهم ما وقّعوه مع القوزاق .

وماذا عن تاراس بولبا ؟

لقد سار على رأس قوّاته حتى قلب بولونيا ، وأحرقوا ثماني عشرة مدينة ، ووصلوا إلى كراكو بالذات . وقد قُتل الكثير من النبلاء ونُهب الكثير من أفضل الحصون وأغناهـا ، كما دمّروا كلّ شيء وجدوه في طريقهم . وكانت أوامر بولبا إلى قوّاته واحدة لا تتغير « لا توفّروا شيئاً » . فكانوا يحرقون المدن ويقضون على سكّانها ، وكان بولبا يقيم حفلاته الجنائزيّة في ذكرى أوستاب في كل مدينة وقرية ، حتى إن النساء والأطفال لم يسلموا من انتقامه . وقد تبيّنت الحكومة البولونية أن أعماله هذه قد تجاوزت إغارات سلب عاديّة ، فأمرت بوتوكي نفسه أن يخرج على رأس قوة من الجنود ، لملاحقة القوزاقيين ، والقبض على تاراس بولبا ورفاقه .

نجح القوزاق في تجنّب مطارديهم ستة أيام متواصلة ، وهم يهيمون في طول البلاد وعرضها ، رغم أن جيادهم كانت بالكاد تقوى على حملهم في هذا

الفِرار الغير العاديّ ، ولكنّها كانت غالباً ما تنجح في إنقاذِهم. ولكن بوتوكي كان مصمّماً هذه المرةَ على القضاءِ عليهم ، فظلّ يطاردُهم دون كَلَلٍ إلى أن باغتَهم عند ضفّة نهر الدنيستر ، حيثُ كان تاراس وقوّاتُه هناك .

أحاط بوتوكي ، بولبا ورفاقَه ، وهم فوق حافةِ صخرةٍ شديدةِ الانحدار على حافة النهر ، وكانت الحجارة تغطّي قمّةَ الصخرة. واستمرّ القوزاقيّونَ يقاتلون أربعةَ أيامٍ متتاليةٍ ويصدّون البولونيين عن طريقِ قذفِهم بالحجارة والطوب . ولكن قوّتَهم ومؤنَهم أخذت في النفاد، مما جعل بولبا يتخذُ قرارَه بأن يَشُقّ طريقَه عبر صفوف العدّو .

وكاد القوزاق ينجحون في ذلك ، لو لم يقفْ بولبا فجاةً ويصيح :

ـ إنتظِروا هنيهة ! لقد أسقطتُ غليوني .

قال بولبا ذلك ونَزَلَ عن جواده ، وأخذ يفتّش عن غليونِه بين العشب . وفي تلك اللحظة ، هاجمتْه قوّةٌ من جنودِ الأعداء وأمسكوا به ، فحاولَ أن يدافع

عن نفسه ، ولكنه لم يتمكّن . لقد أصبَحَ شيخاً ، ولم يَعُدْ ذلك الفارسَ المشهورَ بالشّجاعةِ والقوّة .

لم تكن الشيخوخةُ وحدها هي التي جعلت جنود العدوّ يتمكّنون من القبض عليه ، بل إنه وبكلّ بساطة ، استسلام رجلٍ واحدٍ أمام قوةٍ يتجاوز عدد جنودِها الثلاثين رجلاً . لقد تعلّقوا بذراعيه وساقيه ومنعوه من الحراك . وعند ذلك صرخ البولونيون :

ـ لقد وقع طائرُنا في الفخ !

وبعد أن تداولوا الأمْرَ قرّروا أن يُحرِقوه وهو حيٌّ على مرأى من الجميع . وهكذا أخذوه إلى شجرةٍ هناك ، وربطوه بسلاسِلَ حديديّةٍ وشدّوه إلى جِذع الشجرة وثقبوا يَدَيْه بالمسامير .

ورُفِعَ القوزاقيّ عالياً بحيث يمكنُ رؤيتُه من مسافةٍ بعيدة، ثم كوّموا تحته حِزَمَ الحطبِ والحشائش الجافة. ولكن تاراس لم يكنْ ينظرُ إلى ما كانوا يفعلونه، ولا يفكّر بالنارِ التي ستلتهم جَسَدَه بعد قليل . كان

يتطلّعُ إلى الجهة التي كان جنودُه القوزاقيون يردُّون النارَ منها على مطاردِيهم ، وما لبث أن صاح :

ـ أسرعوا أيها الأبطالُ إلى تلك الرابية خلفَ الغابة ، فلن يتمكّن هؤلاء البولونيون منكم هناك .

ولكنهم لم يسمعوه بسببِ بعدِ المسافة ، فقال تاراس بولبا ، وقد شعر باليأس :

ـ لقد ضاعوا ! وضاعَ كلُّ شيء بسببِ غبائي .

وفجأةً ، لمعَ وميضُ الفرح في عينيه ، عندما نظر إلى أسفلَ ، صوبَ النهر ، ورأى أربعةَ قواربٍ على الشاطىء ، فجمعَ كل قوّتِه وصاح بأعلى صوته :

ـ إذهبوا إلى الشاطىء ، أيُّها الفتيان، خذوا الممرَّ الكائنَ في أسفلِ الرابية . هناك قواربٌ على الشاطىء ، خذوها جميعاً واهربوا ، قبلَ أن ينالَكم الملاعين.

ولقد سمعَه القوزاقُ هذه المرة ، ولكن تاراس بولبا أُصيبَ بضربةٍ على رأسه ، نتيجةَ نصيحته تلك، جعلت كلَّ شيءٍ يدور أمام عينيه .

أسرعَ القوزاق يهبطونَ بكلِّ سرعتهم . لكنّ

مطاردِيهم كانوا على وشْكِ الانقضاض عليهم ، فرأوا أنّ الممرَّ الملتوي كان يُعيقُ تقدُّمَهم ، فشدّوا أعنَّةَ جيادِهم ووقفوا لحظة.. ولم يلبثْ البولونيون أن رأوا شيئاً عجباً ، لم يَروْا مثلَه في حياتهم من قبل .

لقد قفزت جيادُ القوزاق عن الأرض وتمدّدت مثل الأفاعي في الهواء فطارت فوقَ الهاوية ، ثم نزلتْ في الماء ، ولم يفشلْ منهم غيرُ فارسَين فقط ، هبطا فوق الصخور ، وهلكا مع جواديهما هناك .

سبح القوزاق مع جيادِهم إلى أن وصلوا إلى القوارب... ووقف البولونيون على حافةِ الهاوية منذهلين من عملِ القوزاق الباهر . واحتاروا ماذا يفعلون. لكنّ ضابطاً شاباً من ضُبّاطهم ، هو شقيقُ الفتاةِ البولونية التي أحبَّها أندريا ، قفز بكلِّ قوّتِه مع جواده بُغيةَ اللّحاق بالقوزاق. لكنّ حظَّه لم يكن مثلَ حظّهم، بل سقطَ مع جوادِه فوقَ الصخور، فسحقتْه ومزّقته .

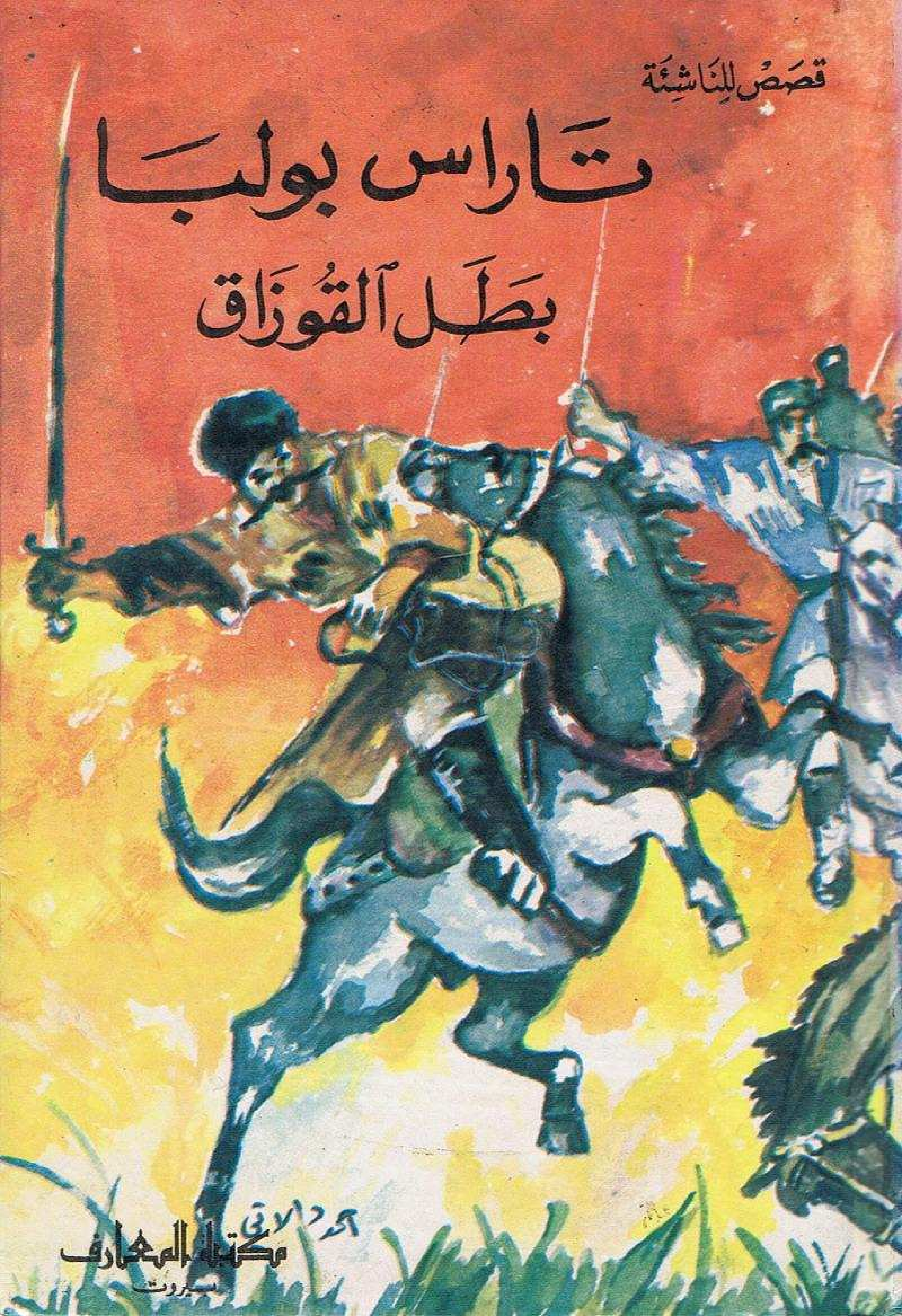
وحينما استعادَ تاراس بولبا وعيَه ونظرَ إلى النهر ، رأى القوزاق يجذّفون منطلِقين بعيداً في

القوارب، وكان رصاصُ البولونيين يتساقَطُ من فوقهم، ولكنّه يسقُطُ بعيداً عنهم، بعد أن أصبحوا بعيدِين.

فالتمعت عينا بولبا بالفرح، وناداهم قائلاً:

ـ الوداعَ أيها الرِفاق، أذكُروني دائماً. تعالوا إلى هنا في الربيع القادم. ثم التفت إلى البولونيين وقال:

ـ أما أنتم أيها البولونيّون، هل لا زِلتم تعتقدون بان هناك أيّ شيء يُخيف القوزاق، في هذه الدنيا. سوفَ يأتي اليومُ الذي ينهضُ به حاكِمٌ من الأرض الروسيّة لن يكونَ هناك قوةٌ على الأرضِ لا تخضع له.


قصص للناشئة
تاراس بولبا
بطل القوزاق
مكتبة المعارف
بيروت